T
H116m

مظاهر الرومنتيكية في الشعر المهجرى الشمالي

بقلم [redacted]

وهي رسالة قدمت الى دائرة الدروس العربية
في كليّة بيروت للبنات للحصول على شهادة ب٠ع٠
في الاداب٠

١٠ ايار سنـــة ١٩٦٢م٠

شكرى وامتنانـــي ، اقدمهما لمرشدى في هذا البحث
الاستاذ اميل معلوف لارشاده المنتج وتوجيهاتـــــــه
المخلصـــــة .

الفهرست

مظاهر الرومنتيكية في الشعر المهجرى الشمالي

مقدمة

الفصل الاول

الرومنتيكية

١ ـ تحديدها ١

٢ ـ نشأتها ٣

٣ ـ عناصرها ٥

ا ـ شعر الطبيعة ٦

ب ـ شعر العاطفة ٩

جـ ـ شعر الموت ١١

د ـ شعر القلق والتمرد ١٣

الفصل الثاني

الرومنتيكية والشعر المهجرى الشمالي

١ ـ بواعث الهجرة ١٦

٢ ـ بواعث الخلال الرومنتيكية في شعر المهجريين ١٧

ا ـ حياتية ١٧

ب ـ ثقافية ٢٠

الفصل الثالث

مظاهر الرومنتيكية في الشعر المهجرى الشمالي

١ ـ شعر الطبيعة ٢٥

٢ ـ شعر العاطفة ٣٦

٣ ـ شعر الموت ٥١

٤ ـ شعر القلق والتمرد ٥٧

الخاتمة ٦٧

مقـدمـــــــــة

ان موضوع الرومنتيكية في الشعر المهجرى هو موضوع واسع متشعب بالنسبة لمثل هذا البحث ، لذلك تناولت اهم المظاهر الرومنتيكيـــــة في شعر ستة من شعراء المهجر الشمالي ، الذين اصطبغ ادبهـــم بصبغة رومنتيكية . اما اختيارى لهذا الموضوع ، فقد كان بدافع حبي للطبيعة التي احببتها منذ الصغر ، والتي احبها الرومنتيكيـــــون واستلهموها في اشعارهم . وبهذا كان الشعر المهجرى هو صلـــة الوصل بيني وبين الطبيعة بصفة خاصـة .

الفصـــل الاول

= : =

الرومنتيكيـــــــة

تحديدها

اننا اذا ما تتبعنا معظم ما قاله الادباء في تحديد الرومنتيكية ، لن نسلم من الحيرة التي تردّى فيها هؤلاء في تحديداتهم ، ولن نلبث ان نقرّ مثلهم بعجزنا عن ذلك . فلقد ادرك جميع الذين حاولوا ان يحددوا الرومنتيكية ، انه من المستحيل الاتيان بتحديد شامل جازم بخصوصها . ومع ذلك ، قامت محاولات عديدة ساعدت على توضيح مفهوم الرومنتيكية بعض الشيء . فهذا ماريو براز (١) (Mario Praz) يصرّ بان اعتبار لفظة الرومنتيكية ذات معنى نسبي تقريبي يفيدنا كثيرا في فهمها . ولما كانت الرومنتيكية تميل الى الغرابة في الوصف ، والجدّة في المعاني والصور ، لم تستطع ان تتخلص من الغموض الذى ادّى الى صعوبة تحديدها . وبهذا الصدد يقول ارفنج بابيت (٢) (Irving Babbitt) : " كثيرا ما يتردد ان لفظتي كلاسيكية ورومنتيكية لا يحدهما تعريف ، وقد يزيد البعض بقولهم انه ولو كان من المستطاع تعريفها ، فان ذلك لن يفيد كثيرا " . ثم اضاف قائلا : " يميل ما هو رومنتيكي عادة الى ان يكون مثيرا للدهشة دون ان يكون متحملا ومعقولا ، فلا تتوارد احداثه تواردا منطقيا ، وعندها يبدو لنا الشيء الغريب المتطرف الذى لا يماثله شيء " . على ان الصعوبة في التحديد ليست العائق الوحيد الذى واجهه الادباء . فلقد ادرك جاكويز بارزون (٣) (Jacques Barzun) ما لذلك من خطورة اذ رأى " ان عدم الحرص في التحديد يكون مدعاة الى البلبلة وتشويش المعنى . فالرومنتيكية ليست مجرد لفظة ، انما هي ظاهرة اوروبية محدودة في ازمنة تاريخية معينة ولها مميزاتها الخاصة ، فتعريفنا اياها دون ان نلمّ بمفاهيمها المتعددة سيزيد من تعقيدها . وثمّة عامل آخر يزيد من صعوبة التحديد هو تفرّد الرومنتيكي بمقدار واحد من عناصر هذا المذهب ، فقد تفاوتت المفاهيم لدى الشعراء فظهرت خلال هذه المدرسة بنسب مختلفة

---

1 Mario Praz, The Romantic Agony (New York: Oxford University Press, 1933), p. 1.

2 Irving Babbitt, Rousseau and Romanticism (New York: Meridian Books, 1919), p.16,18.

3 Jacques Barzun, Romanticism and the Modern Ego (Boston: Little Brown and Co., 1943), p. 4, 6, 7, 20.

في نتاجهم" نتج عن هذا العجز في التحديد ، اختلاف الادباء في تسمية هذه المدرسة . فقد اقترحت مدام بنكر ان يسمّى "الادب الاجتماعي" ، بينما ردّ فيكتور هوجو قائلا :("الرومنتيكية اسم لا معنى له ، فرضه علينا اعداؤنا وقبلناه في استخفاف") (١) اما بول فاليرى فقد كان جريئا وصادقا عندما قال : ("لا بدّ ان يكون المرء غير متزن العقل اذا حاول تعريف الرومنتيكية") ((٢)).

لم يختلف الحال لدى ادباء العرب عن ادباء الغرب ، فقد وقفوا موقفا سلبيا في تحديداتهم للرومنتيكية . على ان عيسى بلّاطه (٣) يرى امكانية الربط بين الرومنتيكية والثورة بدليل انها ثورة على الكلاسيكية ، آمنت بالخلق والابداع وكفرت بالتقاليد ومحاكاتها . فبينما تحكّم الكلاسيكية العقل وتهتم بالشكل اهتماما يقودها الى الايمان بكمالها من حيث الاتقان الفني ، ويفرض عليها انتقاء الافضل والعناية بالنموذج ورذل العواطف والاخيلة ، تتجه الرومنتيكية الى تقديس العاطفة ورذل العقل والمنطق وتفضيل الرجل العادى مدفوعة بحبها للتعبير عن الحياة كما هي لا كما يجب ان تكون . وجملة القول ان الكلاسيكية مدرسة ذات قواعد واصول ثابتة تقليدية ، بينما الرومنتيكية هي الانطلاق والحرية في شتى مظاهرها . ويرى الدكتور محمد غنيمي هلال (٤) ان الرومنتيكية مذهب ادبي يتناول نظرة الانسان الى نفسه والى العالم من حوله . وقد ترك هذا المذهب آثارا خطيرة في الادب والفن ، وتحديده قد يؤدى الى عكس الغاية المرجوّة ، طالما ان التحديد هو حصر ذلك المذهب ضمن قيود حاول ان يتحرر منها . وادب هذا المذهب هو ادب ذوى الامزجة الشعرية الذين يعانون من الكبت معاناة تدعوهم الى الانسياق وراء العواطف والانسياب مع الذات في احلامها وصراعها النفسي ، مستسلمين لمشاعرهم الخاصة وعواطفهم الفردية . ومن هنا جاءت الصعوبة في تحديد هذا المذهب تحديدا من شأنه ان يلمّ بدقائقه ومفاهيمه المختلفة .

اذا حاولنا ان نجمع هذه التحديدات في تعريف واحد ، نرى ان الرومنتيكية

---

(١) محمد غنيمي هلال ، الرومنتيكية (الفجالة : مكتبة نهضة مصر ، لا ن.) ، و، ز.
(٢) م. ن.
(٣) عيسى بلّاطه ، الرومنتيكية (الطبعة الاولى ؛ بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٠ م.) ، ٧—١٠.
(٤) محمد غنيمي هلال ، ع. س. ، ص. ن.

هي نظرة خاصة للحياة ، قديمة بقدم ما فيها من صلات تربطها بجذور القلب البشري الذى لم يكف ابدا عن تلوين الحياة بشتى العواطف ، جديدة بمقدار ما فيها من العناصر الثورية الجديدة التي استطاعت ان تحطّم الكلاسيكية وتحلّ محلها . والرومنتيكية ليست محصورة في ميدان واحد وان ظهرت اكثر وضوحا في الفن والادب ، فهي تشمل الفرد والمجتمع حيث تعنى بالعلاقات الاجتماعية عنايتها بالنفس والمشاعر الفردية . على انها اتّسمت بطابع ذاتي حاولت من خلاله ان تنظر الى العالم اجمع على ضوء ما يعتمل في النفس من انفعالات ومشاعر لا تعرف الحدود ، بل تسعى الى المعرفة وراء الظواهر من خلال الحدس فرأت ما لم يره العقل في عالم الغيبيات . انها انطلاقة الى اللامحدود بحثا عن الكمال وان لم تعتقد يوما انها ستبلغه .

نشأتها :

من حسن الحظّ اننا لا نجد صعوبة في تتبع التطورات التي مرّت بها الرومنتيكية خلال نشأتها ، كتلك الصعوبة التي واجهتنا في التحديد . فهي كمعظم الحركات الادبية بامكان المرء ان يرجعها الى اسبابها وجذورها . تعود لفظة " رومنتيكي " في الاصل الى لفظة " رومانسس " التي اطلقت على القصة الخرافية المليئة بالمغامرات في الادب الفرنسي القديم . وقد استحدث الانجليز من هذه اللفظة القديمة الاشتقاق " رومانتيك " في منتصف القرن السابع عشر ، فكان آنذاك يحمل معنى غير محبب حيث قصد به ذلك الشيء التافه، غير الطبيعي وغير المعقول (١) واول ما استعملت لفظة " رومانتيك " بشكل جدى في الادب الفرنسي في قول روسو " شواطىء بحيرة بيان اكثر وحشية ورومنتيكية من شواطىء بحيرة جنيف "(٢) وقد اخذ روسو هذه اللفظة عن صديقه جرارد ين الذى استعملها سنة ١٧٧٦ تقريبا فتطور مفهومها على يديه . فلم تعد اللفظة بالنسبة لجرارد ين مجرد وصف لبعض المشاهد والاشخاص، بل اصبحت تصف ما يعتمل في النفس بفعل هذه المشاهد اكثر مما تصف المشاهد نفسها . ومن هنا تحولت عنايتها من وصف الاشياء الى وصف الاحاسيس والانفعالات التي تحدثها هذه الاشياء في النفس، وبذلك اصبح جوهر الرومنتيكية تلك الحالات الانفعالية التي لا توصف (٣) .

---

1 Mario Praz, op. cit., pp. 11-12.

2 Irving Babbitt, op. cit., p. 20.

3 M. Praz, op. cit., pp. 13-14.

هي نظرة خاصة للحياة ، قديمة بقدم ما فيها من صلات تربطها بجذور القلب البشرى الذى لم يكف ابدا عن تلوين الحياة بشتى العواطف ، جديدة بمقدار ما فيها من العناصر الثورية الجديدة التي استطاعت ان تحطّم الكلاسيكية وتحلّ محلها . والرومنتيكية ليست محصورة في ميدان واحد وان ظهرت اكثر وضوحا في الفن والادب ، فهي تشمل الفرد والمجتمع حيث تعنى بالعلاقات الاجتماعية عنايتها بالنفس والمشاعر الفردية . على انها اتّسمت بطابع ذاتي حاولت من خلاله ان تنظر الى العالم اجمع على ضوء ما يعتمل في النفس من انفعالات ومشاعر لا تعرف الحدود ، بل تسعى الى المعرفة وراء الظواهر من خلال الحدس فرأت ما لم يره العقل في عالم الغيبيات. انها انطلاقة الى اللامحدود بحثا عن الكمال وان لم تعتقد يوما انها ستبلغه.

نشأتها :

من حسن الحظّ اننا لا نجد صعوبة في تتبع التطورات التي مرّت بها الرومنتيكية خلال نشأتها ، كتلك الصعوبة التي واجهتنا في التحديد . فهي كمعظم الحركات الادبية بامكان المرء ان يرجعها الى اسبابها وجذورها . تعود لفظة "رومنتيكي" في الاصل الى لفظة "رومانسس" التي اطلقت على القصة الخرافية المليئة بالمغامرات في الادب الفرنسي القديم . وقد استحدث الانجليز من هذه اللفظة القديمة الاشتقاق "رومانتيك" في منتصف القرن السابع عشر ، فكان آنذاك يحمل معنى غير محبب حيث قصد به ذلك الشيء التافه، غير الطبيعي وغير المعقول (١) واول ما استعملت لفظة "رومانتيك" بشكل جدى في الادب الفرنسي في قول روسو "شواطىء بحيرة بيان اكثر وحشية ورومنتيكية من شواطىء بحيرة جنيف" (٢) وقد اخذ روسو هذه اللفظة عن صديقه جراردين الذى استعملها سنة ١٧٧٦ تقريبا فتطور مفهومها على يديه . فلم تعد اللفظة بالنسبة لجراردين مجرد وصف لبعض المشاهد والاشخاص، بل اصبحت تصف ما يعتمل في النفس بفعل هذه المشاهد اكثر مما تصف المشاهد نفسها . ومن هنا تحولت عنايتها من وصف الاشياء الى وصف الاحاسيس والانفعالات التي تحدثها هذه الاشياء في النفس، وبذلك اصبح جوهر الرومنتيكية تلك الحالات الانفعالية التي لا توصف (٣) .

---

1 Mario Praz, op. cit., pp. 11-12.

2 Irving Babbitt, op. cit., p. 20.

3 M. Praz, op. cit., pp. 13-14.

ليست الخصائص الرومنتيكية شيئا مستحدثا في الادب ، فقد وجدت في معظم مراحله التاريخية . الا ان اعظم فترة تميز ادبها باكتمال العناصر الرزمنتيكية هي القرن الثامن عشر حيث ولدت تلك العناصر مدرسة ادبية ذات اهمية بالغة . وقد مرّت هذه المدرسة بادوار، كان اولها دورا انتقالياسمّي " ما قبل الرومنتيكية " . وادب هذا الدور ظلّ ممتزجا ببعض العناصر الكلاسيكية خصوصا من حيث الشكل . ورغم ان كتّاب هذه الفترة وضعوا اسس الحركة الرومنتيكية ، الا انه لم يكن لديهم ادب مكتمل ومميز في ذاته وخصائصه ، مما حدا بمدام دى ستايل وشاتوبريان الى التصريح بان التجديد يجب ان يتناول الشكل والجوهر معا .(١) وهكذا اخذت الرومنتيكية تلفت اليها انظار الكتّاب امثال تومسون وكولنز وجرى ، حتى اصبح معظم كتّاب القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر من الرومنتيكيين . وبهذا اتسعت ووضح مفهومها الذى نصّ على ان الشعور والحس هما اساس التجربة . وقد هبّ روبرت بيرنز ليبرهن ان النظرية القائلة بان اجود الشعر يجب ان ينبع من حياة اقرب الى الطبيعة والى قلب الرجل الساذج ، لهي اعمق من مجرد احلام عاطفية رقيقة .(٢) ورغم هذه الانتفاضات التي قام بها الرومنتيكيون من آن لآخر ، لم تكتمل الحركة الرومنتيكية الا في الفترة الواقعة بين ١٧٨٣ — ١٨٣٢ وهذه مرّت بطورين ، الاول يمتد من ١٧٨٣ — ١٨١٢ حيث ظهرت مؤلفات شعرية عظيمة لوليم بليك وكولردج وورد زورت وسكوت . اما الطور الثاني الذى امتد بين ١٨١٢ — ١٨٣٢ فقد ظهرت فيه مؤلفات في القصة والنقد ، كما ظهرت اشعار بيرون وسكوت وكيتس وشللي .(٣) .

والجدير بالذكر ان هذه الحركة الجديدة قامت على انقاض المذهب الكلاسيكي ، لتكون نقطة الانطلاق في حياة الرومنتيكي . فاخذت تتوارى المثل والنماذج بعد ان اكتشف الفرد في ذاته عالما جديدا مليئا بالاحاسيس والمشاعر التي تصله بالكون وبالطبيعة . هكذا تلاقت التيارات الفكرية وانبثقت عنها قيم ومفاهيم جديدة تبلورت جميعها في الحركة الرومنتيكية .(٤)

---

(١) فان تيغم ، الرومنتيكية ، تر. بهيج عثمان (بيروت : دار بيروت ، ١٩٥٦ م .)، ٣—٥، ١١—١٢

2 Ernest Bernboum, Anthology of Romanticism (Third Addition; New York: The Roland Press Co., 1929), p. 4.

3 Ibid., pp. XXV, 3-4.

(٤) محمد غنيمي هلال ، ع .س ، ١—٢، ١٨، ١٩، ٢٢ .

لم تنحصر هذه الحركة الادبية الجديدة في بلد واحد بل كانت ظاهرة اوروبية عمّت معظم بلدان اوروبا ، مثل المانيا وانجلترا وفرنسا ، ثم انتقل تأثيرها الى امريكا . اختلفت المفاهيم الرومنتيكية في هذه البلدان باختلاف نظام المعيشة والعقلية ، وان حافظت جميعها على الخصائص الرومنتيكية العامة وبقيت الواحدة تمد الاخرى بافكار جديدة من آن لآخر . كانت المانيا السباقة الى اعتناق الرومنتيكية ورذل الكلاسيكية حوالي ١٧٧٠ عندما هاجم لسنغ الكلاسيكية وجاء بعده من خطا بالرومنتيكية خطوات واسعة كجوتيه وشللر . اما انجلترا فقد عصفت بتقاليدها الثورة الفرنسية بعد ان تركت بها بذور الرومنتيكية التي سرعان ما نمت وترعرعت في الادب الانجليزي . ومع ذلك فقد حالت الثورة الفرنسية دون تقدم الرومنتيكية في فرنسا نفسها ، حيث صرفت السياسة انظار الكتّاب عن الادب فبقيت الرومنتيكية تتأرجح بين الضعف والقوة حتى سقوط نابليون ومجيء لامرتين . فاصبحت الفترة الواقعة بين ١٨١٠ — ١٨٢٠ هي الفترة التي توهجت فيها المبادىء الرومنتيكية وانفجرت بقوة هائلة في مقدمة مسرحية كرمويل لفكتور هوجو . بعدئذ تسرّبت هذه المبادىء الرومنتيكية الحديثة الى كل من اسبانيا وايطاليا وبولندا وروسيا ، دون أن تقف عند مرحلة التقليد اذ تعدّتها الى الخلق والابداع والمساهمة الفعلية .(١) .

عناصرهـــــا :

يتميز الادب الرومنتيكي بتنوع الاغراض التي اصطبغت جميعها بالوان شتى من العواطف ، ولكنها تعبّر عن نزعات رومنتيكية اصيلة . واكثر هذه الاغراض تمثيلا للشعر الرومنتيكي هي التي تدور حول الطبيعة وما توحيه من اخيلة وافكار ، ثم موضوع العاطفة التي وصلت الشاعر بعالم الرؤى والاحلام . اما ذلك العالم الغيبي الذى شاق الرومنتيكيين ، فقد اورث اشعارهم القلق والتمرد وطبعه بطابع الحيرة وما تولّد من تساؤلات عن المصير والبداية والنهاية التي آلمت الشاعر . هذه هي العناصر الرومنتيكية التي سنتناولها في البحث الان ، على الا نوغل بـــه تمشيا مع مقتضى البحث العام .

---

(١)

1 J. Barzun, Op. Cit., pp. 134-137.

شعر الطبيعة

فلما حفل شعر بالطبيعة مثلما حفل بها الشعر الرومنتيكي ، ولم تكن الطبيعة في هذا الشعر نوعا من الترف الذى يضفي على الشعر صورا حيّة جميلة ، ولا وسيلة للايضاح والتمثيل . فطبيعة الرومنتيكي ليست هي الحدائق والقصور والجنائن التي امتدت اليها يد الانسان فهذبتها ، ولكنها الغابات والجبال والصحارى بما فيها من بداءة وحشية . هناك بين الادغال وفي مجاهل الطبيعة البكر ، القى الرومنتيكيون انفسهم ، ومنها كانت نقطة انطلاقهم الى عالم حالم بعيد . ان الركون الى الطبيعة كان حاجة نفسية ملحّة في اعماق الشاعر قد دفعه الى الامتزاج بالطبيعة فيرى فيها ما يشعر به تبعا لمزاجه الشعرى " فهي تضحك كلما ضحك وتبكي كلما بكا ." (١) انها قطعة من وجدانه ، هو يهبها الحياة ويحييها بنيران حبه فلولاه كانت ميتة كما قال روسو : " ايتها الاشياء الميتة التي فارقها الشعور ، ليس هذا سحرك فليس من المعقول ان يكون لديك مثل هذه الروعة ، فالسحر يكمن في قلبي الذى يلذّ له ان يهب كل شيء ما عنده ." (٢) يتبين لنا من ذلك ان الطبيعة اضحت بالنسبة الى الرومنتيكي حالة نفسية فهناك شيء يضجّ في اعماقه يلحّ عليه بالظهور، ولكنه يصطدم بالمجتمع والتقاليد والعقل الذى لا يعترف بالاحاسيس والمشاعر . انه الواقع الذى يفرّ منه الرومنتيكي الى احضان الطبيعة التي يرى فيها ملاذا يحميه من الحضارة المصطنعة وشرور المدنية الزائفة التي طغت على الفرد فصيرته وحشا مخادعا بعد ان قضت على فطرته وانتزعت عنصر الخير منه . في الطبيعة يجد المشاركة الوجدانية التي لم يقع عليها في المجتمع ، فهي ليست خاوية موحشة بل ملأى بهمس حالم تبعثه الكائنات الحيّة التي تتردد في انفاس الرياحين واغاريد الطيور وهمس السواقي . الى هذا العالم الحيّ الرحب يهرع الشاعر كلما هاج به الشوق وازدحمت نفسه بالمعاني . هناك يخلع عنه ذاته الاجتماعية الزائفة ويتعرى امام الطبيعة من كل ما علق به من شرور وقيود ، فيرى الحقيقة بما فيها من خير وجمال عبر حدود الزمان والمكان .

شدّ ما راقت الطبيعة المزاج الرومنتيكي ، فهي سريعة التحول كسرعة تحول العواطف لذلك احب فصول السنة وتغنّى بها . ولكنه تبعا لطبيعته القانطة الحزينة فضّل

---

1 Irving Babbitt, Op. Cit., p. 231.

2 Ibid.

فصل الخريف لما فيه من القنوط والقسوة حيث تمتد الابعاد الضبابية فتمحي معالم الاشياء ٠ وفي الخريف تتعرى الاشجار من اوراقها وتهجر اسراب الطيور اوكارها فارّة من جبروت الطبيعة العاتي ، بينما تسرع الشمس في المغيب تاركة وراءها اصفرارا مزعزعا على وجنة الافق ٠ وفي مثل هذا الجو القاتم الموحي بالزوال ، تسعد النفس الرومنتيكية ويحلو لها الالم حيث ترتسم لها صورة الفناء في كل مظاهر الكون الزائل ٠ اما الليل فهو المحور الذى تتأرجح حوله روح الرومنتيكي وتظلّ ابدا منجذبة اليه " لانه ملىء بالاسرار التي لا تدرك ، ولانه مثار الاحلام "٠ (١) فالليل ملىء بالحقائق الخفية المستترة التي تثير الخيال وتبعث على التأمل ٠ تلك الحقائق الغامضة المظلمة تجرى مجرى السحر في النفس ، فيتجلّى لها الليل عالما من الرمز يخفي وراءه حقائق كبرى ٠ فقمره الآفل هو رمز الفناء الذى يعبر بالرومنتيكي الى عالم الابدية والخلود على جسر من الموت ٠ انه الليل " بسيط عميق واسع كقلب المحب"(٢) ٠ ففيه تختفي الكائنات خلف ستار اسود يشبه العدم ، حيث ينطلق الخيال فلا تصدمه المرئيات بل ينجرف مع تيار الاحلام الذى يجسّد الحب للرومنتيكي في كل همسة نسمة ، او رفة جناح ، او رعشة روح تصدر عن عالم الليل ٠ غير ان هذا الليل وان رمز الى الفناء لسكونه وظلامه الذى يشبه الموت ، فقد ظلّ مصدر وحي والهام فكرى ووجداني لدى الرومنتيكي ٠ ولكنه الهام كثيرا ما تلفّع بالسواد الذى يستهوى ذوى النفوس الكئيبة المتشائمة التي يحلو لها ان تحلّق فوق القبور ٠ تلك القبور التي جمعت بين يونج ولياليه ، بل قل الليل الذى جمع بين القبور ويونج حيث قال : (" مرحبا ايتها الظلمات ، مرحبا ايها الليل ٠٠٠٠ واحبب بزيارة القبور في منتصف الليل حيث يطبق الظلام جفون الدهماء "٠) (٣) ٠ ومن ابرز من اكثر من ذكر الليل الشاعر الالماني نوفالس الذى تغنى بالليل ونجومه اذ رآه مهدا للحب والاحلام وبابا يؤدى الى المعرفة الحقة ٠ انه عالم الحب والامل لانه يذكر الشاعر بالموت الذى سيجمعه

---

(١) محمد غنيمي هلال ، ع ٠س٠ ، ١٣٦ ٠

(٢) م ٠ن ٠ ، ١٣٧ ٠

(٣) م ٠ن ٠ ، ١٣٩ ٠

بحبيبته الراحلة . الليل هو العالم الذى عاش فيه نوفالس حياته القصيرة ، فكان الصدر الرحب الذى بثّه عواطفه واشجانه وظلّ يردد على مسمعيه : (" هنا الليل ، روحي تنطلق وتسأل من جديد ، هل انت لي يا حبيبي ، انني انظر في اعماق عينيك فلا ارى الا حبا وصفاء وانينا على مذبح الليل ") (١) . اما النوم فهو الهبة الكبرى التي تلّف الشاعر في ثنايا النسيان واللاشعور فتحجب عنه الحقيقة النهارية الزائفة وتصله بعالم اللانهاية ، وعالم الذات ، انه الموت الذى يمارسه الشاعر الرومنتيكي في عالم الحياة . قال نوفالس مخاطبا النوم ، (" ايها النوم المقدس .... انك انت الرسول الصامت لعالم الاسرار واللانهاية ") (٢) . وقد رأى بعضهم في الطبيعة المعلم الاول للانسان لانها عالم الفطرة والحرية التي سلمت من سيطرة العقل البشرى ، ولم يمدّ اليها معول المدنية الهدّام . فالطبيعة هي المعلم الحق الذى بشر به ورد زورت لانها تعيد الى الانسان ذكرياته ومعارفه التي يفقدها كلما ابتعدت عنه الطفولة . تلك الطفولة التي ظل الرومنتيكيون يحنّون اليها لانها رمز البراءة والخير والفطرة لم يشوّهها العلم والحضارة . اما الرومنتيكيون الالمان فقد فلسفوا الطبيعة واعتبروها عالما عقلانيا وفي هذا يقول شلنغ (Schelling) : " ان الطبيعة هي عقل منظور ، بينما العقل هو طبيعة غير منظورة "(٣)

هكذا كانت الطبيعة لدى الرومنتيكيين رمز الخير والفضيلة وهي الملاذ الوحيد الذى يلجأ اليه الرومنتيكي هربا من شرور المجتمع . فيها يرى ذاته ، ولديها يجد اللذة والانس والمشاركة فلم يذهب اليها طلبا للوحدة بل هربا منها . انه يرى الخير كل الخير في تلك الارض السمراء التي ترك المحراث في قلبها دروبا تتصل بحنايا الفؤاد ، اما ذلك الفلاح الساذج فقد كان رمزا للوداعة النزاهة وصدق الشعور . لهذا كثرت صور الحصاد في الشعر الرومنتيكي كما كثر ذكر البحار والغابات والازاهر . ففي هذا الجو الحالم الذى تكتنفه الاشجار وتعبق به رائحة الورود ممتزجة برائحة التربة الندية ، ينطوى الرومنتيكي على ذاته ويحل

---

(١) انيس منصور ، " نوفالس شاعر الليل والنوم والموت "، الرسالة الجديدة ، ١٦ (يوليو، ١٩٥٥م) ، ٥

(٢) م . ن .

(٣) Ralph Tymus, German Romantic Literature (London: Mathuen and Co. Ltd., 1955), p. 179.

في الطبيعة فيرى نفسه جزءا من العالم الخالد الذى يجعله دائم النشوة موصول الحنين الى عالم الغيب ، الى الله ، الى المطلق واللانهائي . ونحن لن نغي الطبيعة حقها في الشعر الرومنتيكي اذا اغفلنا علاقتها بالاحلام والرؤى الرومنتيكية ، فقد كانت الطبيعة عنصرا فعّالا في خلق اطار يضم تلك الاحلام وهاتيك الرؤى . ولما كانت الاحلام ذات علاقة قصوى بالحب الرومنتيكي فقد رأينا ان نتحدث عنها حينما نتعرض لشعر العاطفة على ان تكون تلك الاحلام والرؤى صلة الوصل بين الطبيعة والحب او بين الاطار والصورة .

شعر العاطفـــة :

ليس الحب شيئا جديدا على الشعر ، فقد ظلّ مصدر وحي والهام للشعراء منذ بدء الخليقة . الا ان الحب لدى الرومنتيكيين اصبح عنصرا اساسيا في نتاجهم . فهـو التجربة الشعورية التي يلذّ للشاعر ان يعيشها في حياته وفي كتابته . لذلك غلبت الغنائية على الشعر الرومنتيكي ولا عجب في ذلك فالرومنتيكية قامت على العاطفة . اوتي الرومنتيكيون من رهافة الحسّ وتوقّد العاطفة ما سما بالحب عندهم عن المادة وان ظلّ الجمال المـادى مصدر وحي لجمال روحي . ولذلك اصبح الحب على نوع من المثالية التي ظلّ الشاعر بسببها دائم الحنين الى حب بعيد المنال يتراءى له ولا يراه ، يشعر به ولا يلمسه . ويمثّل شللي على ذلك بقوله : " كحنين الفراشة الى النجم ، والليل الى النهار ، وهكذا يظلّ اشتياقنا الـى حب بعيد عن عالم الحزن الذى نعيش فيه ." (١) ان هذا الاتجاه المثالي هو نتيجة لحب يعيش في داخل النفس لا خارجها . فالمحبوبة هي مخلوقة خيال الشاعر ، هي ابنة الوهم الذى عاش فيه الرومنتيكي ، فهذا شاتوبريان يتحدث عن هذه التجربة الوهمية في الحـــب بقوله : " (ونتيجة لتخيلاتي ووحدتي ، تحولت عما حولي وانطويت على ذاتي ، ولانعدام الحب الحقيقي خلقت لي رغبتي الجامحة صورة للحب لم تكن لتفارقني ابدا ." (٢) تلـك الذاتية جعلت الشاعر يخلع على محبوبته اوصافا ليست لها ، اوصافا تلائم مزاجه ونظرته الى الحب . لقد وصفها بالطفولة والبراءة والطهارة ، ودعاها بشقيقة روحه ورافقها في خلواته

---

1 Irving Babbitt, Op. Cit., p. 180.

2 Ibid., p. 179.

في قلب الطبيعة حيث تتهيأ له سبل المتعة مع ذلك الطيف الماثل في مخيلته . فالطبيعة لها الدور الاول في ايقاظ عاطفة الحب لدى الشاعر ، فهي هيكل الحب ومعبد الذكرى . انها الاطار الذى يضم المحبين في عالم سحرى حالم يزيد من روعة الحب ويحيل نيرانه المتأججة الى نور قدسي يضيء ظلمات النفس ويتغلغل في حنايا الفؤاد . وقد تكون الطبيعة مبعثا لذكرى مؤلمة كتلك الذكرى التي عادت الى الفرد دى موسيه (٧) (A. de Musset) مع ليلة من ليالي الخريف حيث كل شيء يبعث على الالم . فهذى الطريق الموحش تشيع في النفس ذكرى الخيلة فتحيل اصداء الرياح في مسمعيه ما يشبه انين البشر . ورغم ذلك فهو يصر على الاستمرار في حبه ويؤكد ذلك بالقسم : (" احب ... وقد عقدت العهد ان احب حبا خاليا من الامل ، ولكنه ليس خاليا من السعادة : اني اراك وهذا حسبي ") (٢) ذلك الالم الذى ينتج عن الفشل في الحب يبعث في نفس الشاعر لذة تعادل الحب نفسه . لذلك كان يحلو للشاعر المعاناة في الحب وقد يعمد الى الاستزادة من تلك المعاناة بحيث يصبح الالم ثمرة الارادة الواعية التي تتمثل في قول موسيه (" اني احب واريد ان يشحب لوني . احب واريد العذاب ... واريد ان احس على خدى فيض نبع من الدموع لا يمكن ان يغيض ") (٣) . ان الالم في الحب هو حصيلة حب صادق نصيبه الحرمان والفشل ، ولكنه حب عميق مخلص لا يبارح الفؤاد . لذلك قدس الرومنتيكيون الالم ، وقد غالى بعضهم في تخيل ما من شأنه ان يبعث الالم والكآبة في نفسه ويذكره بحبه اليائس . لهذا كثرت لدى هؤلاء القصائد التي تمزج صور الحب بالموت حيث يبرز طيف المحبوبة في مخيلة الشاعر ويبرز معها ذكر الموت ، كما في قصيدة " لوسي " لورد زورث ثم " الطوفان " لالفرد دفينيي (de Vigny) وتصور القصيدة الاخيرة الاخلاص في الحب حتى الموت . حيث يفضل المحبان الغرق معا على النجاة والافتراق . كان من نتيجة هذا الالم ان تطهرت نفس المحب الرومنتيكي فسما حبه حتى تعالى عن المادة ورق حتى شمل الانسانية جمعاء . فقد تحدث هؤلاء كثيرا عن عواطفهم الانسانية وحضوا على التآخي مما دعا فكتور هوجو بان يقول ان " لحظة واحدة من الحب تفتح ابواب عدن المغلقة " (٤) .

---

(١) محمد مندور ، الادب ومذاهبه (الطبعة الثانية) القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ١٩٥٧م . ٦٨
(٢) محمد غنيمي هلال ، ع . س . ١٤٨ .
(٣) م . ن . ١٤٩ .
(٤) م . ن . ١٥١ .

عاش الحب في قلب المحب وفي مخيلته ، فكثرت عنده الاحلام والروءى تنفيسا للرغبات وهربا من الواقع ، وقد تبلغ قوة التخيّل وعمق التجربة مدى يبلغ حد الروءيا . فيتراءى للشاعر طيف الحبيبة ويلتقيان في حلم طويل تمناه روسو ان يظلّ الى الابد عندما قال :(" لو تحولت احلامي الى حقائق ، لما اكتفيت بها ، بل لظللت اتخيّل واحلم لا تقف رغبتي عند حد ، لاني لا ازال أجد في نفسي فراغا لا يشرح ولا يملأه شيء . انه نوع من انطلاق القلب الى مصدر متعة لا علم لي بها ، ولكني احسّ بحاجتي اليها ، بل لاني اجد في ذلك الانطلاق نفسه متعـــة .....) (١)

وهكذا كانت الاحلام تحقيقا وهميا للواقع وانطلاقا الى عالم غير عالم الواقع وتحريرا لذات الرونتيكي وابرازا لجوانبها الغامضة وبالتالي تفجيرا لابعادها النفسية التي لا يصل اليها بوعيه ، وشعوره . وقد امتزجت الاحلام بالطبيعة لان كلا منهما يعبّر عن الحياة تعبيرا مباشرا دون لغة حيث تتغلب الفطرة على الصنعة . فهذا جرارد ى نرفال يرى في الاحلام رمزا للواقع الخارجي فقد ادرك ان حبيبته التي ظلّ يطاردها في احلامه ، لم تكن في الواقع سوى رمز لامه التي ماتت وهو صغير فظلّ معذبا لموتها . وهكذا نرى ان الحب وروءاه واحلامه ، لم تكن سوى وسائل وهمية غالبا وان كانت ذات واقع يقيني في نفس الشاعر ، لجأ اليهـــا الرومنتيكيون لينفسوا بها عن ذلك العالم الذى يضجّ في اعماقهم زاخرا بشتى العواطف . فهي نتائج حتمية للطبيعة الرومنتيكية المريضة التي رذلت الواقع وتشبثت بعالم خيالي يكاد يكون واقعا يقينيا في نفوسهم .اما الطبيعة فهي المكان الذى جعل هروب هؤلاء الى ذلك العالم ممكن الوقوع ، ولذلك قلنا انها نقطة الانطلاق في حياة الرومنتيكي .

شعـــر الموت

لقد تأثرت الرومنتيكية تأثرا كبيرا بالاشعار التقليدية التي شاعت فيها نزعة الموت في القرن الثامن عشر ، فكثر ذكر الموت لدى معظم الرومنتيكيين . على ان ذلك لم يكن تقليدا بقدر ما كان شعورا ملحا بالموت تبعا لامزجتهم القلقة الحزينة . فقد مرّوا بتجارب نفسية اليمة حملتهم على التفكير الغيبي . فتساءلوا عن المصير ، عن الحياة وعن الموت بصدق واخلاص . ومن المعتقد ان للقساوسة الانجليز يدا كبرى في اشاعة فكرة التغني بالموت بين الرومنتيكيين ."

---

(١) محمد غنيمي هلال ، ع .س. ، ٥١ .

" وشعر القبور والليل تقليد سرى الى جميع اوروبا من الادب الانكيزى ... وكان الانجليز يسمون شعرائه ، مدرسة القبور ." (١) فقد كان هؤلاء القساوسة يقومون بزيارات ليلية للقبور يستلهمونها فتغدو مثارا لذكريات حزينة . ولم تبعث القبور على الذكرى فقط ، بل اوحت لهم بالتفكير في الموت والخلود والبعث . والحقيقة ان ذكر الموت لم يكن في الشعر الرومنتيكي ناتجا عن تأثر بهؤلاء القساوسة فقط . فان الالم الذى عاناه الشاعر لعدم القدرة على تحقيق رغباته ونقمته على المصير والقدر ، دفعه الى ضروب من الخيال والاحلام ، بها يحقق ذاته تحقيقا خياليا ويهرب من واقعه . ولكن لا مفر من العودة الى ذلك الواقع ، ولذلك تصاب النفس الرومنتيكية بنكسة مريرة تدفعها الى التشاؤم حتى الموت . كثر ذكر الموت لدى كيتس وشللي ولا مرتين وبايرون . ففي قصيدة " موت الشاعر " يحس لا مرتين بفكرة الموت احساسا قويا اذ يقول : (" تحطمت كأس احلامي وما زالت مترعة ، ... وجناح الموت يقرع الجرس الذى يبكيني ويعلن بضربات متقطعة ساعتي الاخيرة .") (٢) وقد يتوجه الشاعر الى مخلوق غير نفسه يبثه الشكوى ويصور له الموت كما فعل كيتس الذى جعل من البلبل خدينا يبثه انينه وشكواه : (" في الظلام انصت ، وكثيرا ما كنت نصف هائم بالموت المريح ، ادعوه باسماء لطيفة في اشعار تأملية كيما يأخذ الى الهواء نفسي الهادئ واكثر من اى وقت مضى يبدو الان ممتعا ان اموت وانا في منتصف الليل بلا الم .") (٣) وتقابل هذه الصورة الليلية عند كيتس صورة اخرى للموت عند شللي لا تقل تأثيرا عن الاولى :

(" اما الان فاليأس نفسه لطيف كالريح والحياة واستطيع ان اضطجع كطفل متعب ... الى ان يخف الموت الي الخطى كأنه النوم واستطيع في الهواء الدافئ ان اشعر بخدى يفقد حرارته التدريجية واسمع البحر يغني اغنيته الاخيرة فوق دماغي الذى يموت .") (٤)

---

(١) محمد غنيمي هلال ، ع .س. ، ٢٩ .

(٢) عيسى بلاطه ، ع .س. ، ٦٩ .

(٣) م .ن . ، ٧٠ .

(٤) م .ن . ، ٧١ .

نرى في هذا القول ايماءة خفيفة الى فكرة خلود الطبيعة في ذهن الرومنتيكيين الذين احبوا الطبيعة لانها رمز الخلود والابدية ، فشللي يموت والبحر يستمر في انشودته انشودة البقاء الابدى . وقد بدت فكرة الموت جميلة محببة مريحة بالنسبة لهؤلاء الشعراء وهي كذلك تبدو بالنسبة للشاعر الالماني نوفالس الذى يرى في الموت وسيلته الوحيدة التي تجمعه بحبيبته صوفيا . ولما كان نوفالس يحن الى الموت ، فقد اقترنت صورته في مخيلة الشاعر بالنوم والليل الذى تغنى به : (" بل اروع من نجوم السماء في الفضاء السحيق ، تنبرى لنا عيون لا نهاية لها . انها عيون الليل ") (١) وذكر الموت الرومنتيكي يسوقنا الى ذكر الشاعر الانجليزى يونج الذى اوحت اشعاره الملأى بصور الموت المفزعة ، الى بعض الشعراء فوصفوا الاحتضار والموت كما فعل شاتوبريان ولامرتين . قال يونج في هدأة احدى الليالي واصغا الليل وما يبعث في النفس من ذكرى : (" سكون ما اشد خموده ، وظلمات ما اعمقها ، لا تدرك عين ولا اذن سامعة شيئا ، الحقيقة تنام كأنما سكن نبض الحياة وتوقفت الطبيعة وقفة تنبئ عن نهايتها .") (٢) لقد كانت هذه الصور المفزعة تفتن الرومنتيكي فتجعله يتمنى الموت الذى دعاه وثمن (Whitman) " الاهل السوداء " بينما قال كيتس انه (" نصف هائم بالموت الهادئ البسيط ") (٣) مثل هذا الشعور الحزين هو الذى دعا شللي لان يقول على لسان الرومنتيكيين : (" ان اجمل اغانينا هي تلك التي تحدثنا عن اعمق الحزن ") (٤) .

شعر التمرد والقلق

ولكن هل طيّبت الطبيعة خاطر هؤلاء . هل هدأت نفوسهم عندما ركنوا اليها وهل استطاع الحب ان يعمر قلوبهم بالسكينة والسلام . لم يكن الامر كذلك لدى جميع الرومنتيكيين الذين جأوا الى العالم وفي نفوسهم امان كثيرة لبناء الانسان من جديد في الرجوع به الى حياة الفطرة الساذجة الخيّرة . لقد تيقنوا ان العقل لن يستطيع ان يصل الى الحقيقة كما " ان الفكر البشرى محدود بحدود لاتستطيع ان تتخطاه قوة غير الحدس " (٥) لذلك عصفوا بكل ما هو عقلاني ، آخذين على عاتقهم تخليص البشرية من

---

(١) انيس منصور ، ع . س . ، ٥٥ .

(٢) محمد غنيمي هلال ، ع . س . ، ٣٠ .

3 George K. Anderson, Tradition and Revolt, The World Literature 3 (New York: Forsman and Co., 1951), pp. 281-282.

4 Ibid.

5 Ibid., p. 280.

مهاوى الشقاء الذى تتردى فيه باسم الحضارة والعقل ، من خلال تلك الاحاسيس والمشاعر الفردية . اصطدمت هذه الحساسة بحقيقة الواقع ، فتولدت النقمة التي زرعت بـــذور التمرد والقلق في نفوس هؤلاء . " يجب ان تقيم الحياة من حيث قدرة الفرد على تخطّـــي واقع الحياة والنزوع الى ابعاد لا تصلها الملاحظة الفردية ." (١) ان الانسان لعظيم الشأن ، فهل من العدل ان تنتهي حياته بشيء اسمه الموت دون ان يترك أثرا وراءه ، ما هو القدر وما هي البداية والنهاية ولماذا يعدم الفرد حريته ثم يموت حتف انفـــــه ، كل هذه التساؤلات هي نتيجة للتمرد على القوى الخفية المسيّرة لحياة الانسان . لقد دعي هذا "بالتمرد الميتافزيقي" او التمرد الغيبي الذى امتاز به الادب الرومنتيكي فسما هذا الادب الى عالم فيه كثير من المثالية . ومن هنا التقت الرومنتيكية الدين الذى تدين له بكثير من مثاليتها . الا ان هذه المثالية نفسها كانت سببا في خروج بعض الرومنتيكيين على المسيحية لانها حدّت من حرية الفرد وحمّلته وصمة الخطيئة الاصليّة . وقد آلمـــت هذه الحقيقة بايرون فقال على لسان قايين : ("وهذه هي الحياة . يا للجهد ، ولم كان عليّ ان أُجهد . لان والدى لم يستطع الاحتفاظ بمكانه في عدن ، وماذا فعلت في هذا الامر . لم اكن قد ولدت بعد ، ولم اطلب ان اولد .") (٢) ومع ذلك فقد ظـــلّ هؤلاء يؤمنون بان هناك الها وهناك عالم غيب الهي ، اضحى مثارا للتأمل وبابا للخـــلاص تدخله النفوس المتشائمة التي اعياها اصلاح الانسانية ووجدت الشر حتى في الطبيعة . تلك الطبيعة التي رأفت بهؤلاء ، لم تستطع اشباع الجوع النفسي القلق لدى بعضهم من ذوى الامزجة الحادة المريضة . ويمثل بايرون هذه الفئة عندما نعى الطبيعـــــة الجامدة القاسية بقوله : ("مهما ينطلق من صيحات الاسى فوق نعشك الصامت ، فلن تذرف عليك الارض ولا السماء دمعة واحدة .") (٣) الا ان هذا التشاؤم المتخاذل لم يكن دائما نهاية المطاف ، فان الشك الذى تولد عنه كان سببا في اذكاء شعلة التأمل

---

1 Curtis Hidden Page, "The Romantic Emancipation", Lectures on Literature (New York: The Columbia University Press, 1411), p. 210.

(٢) محمد غنيمي هلال ، ع . س . ، ١٢٢ .

(٣) م . ن . ، ١٤١ .

والتفكير عند البعض . وفي غمرة هذا الشك قال هوجو : (" ولدت وسأموت، حقيقتان ، ولكنهما بنفسهما هوتان . كلا فذاتي موجودة ... فهناك العالم المادى وعالم الكواكب .. ومن هنا كانت الايدى مبسوطة لحل المعضلة ... ما المصير ، وما الحياة . ماذا كان من قبل ، وماذا بعد ، ما العالم .") (١) هكذا نرى ان ذلك الشك اليائس الذى يتشبث احيانا بالامل واحيانا يعصف به واقع الحياة ، هو سبيل الرومنتيكيين الذين اتخذوا من الشك والتساؤل الغيبي وسيلة للكشف عن حقائق جديدة عن طريق الحدس الذى دعاه نوفالس وهوجو بالاشراق الروحي (٢) على طريقة الصوفية . بينما استسلم فريق من هؤلاء الى اليأس العاجز الذى عزا جميع الذنوب الى الدين لانه حمل فكرة الخطيئة الموروثة . يولد الانسان وتولد معه الخطيئة التي يتعذب بسببها ، اما القدر فهو وسيلة الاله ليعصف بالبرىء وبالمذنب دونما رحمة او شفقة . مثل هذا الاعتقاد حمل دفينيي على محاربة القدر الغاشم في قصيدته الطوفان لانه اعتقد (" ان الذى يخلق بدون حب ، يهلك بدون رحمة .") (٣) اذا كان القدر هو فراق الحبيبين فنعما بالموت يجمعهما معا ابد الدهر .

تلك التساؤلات العميقة التي تخطت عالم المادة والتي اتخذت من التمرد رمزا لها فكانت تضل احيانا واحيانا اخرى تهتدى ! بقيت علامة استفهام كبرى في اذهان الرومنتيكيين الذين هزئوا بحقيقة الواقع . فاستحال هزؤهم تمردا رمى بهم في احضان الشك . لذلك نشدوا الحقيقة في غير عالمهم ، في عالم الغيب الذى وعوه وان لم يعوا حقيقته وكنهه .

---

(١) م . ن . ، ١١٩ .

(٢) م . ن . ، ١١٨ ، ١٢٠ .

(٣) م . ن . ، ١٢٤ .

الفصل الثاني

الرومنتيكية والشعر المهجرى

ان تلك المقدمة المقتضبة عن الرومنتيكية التي يهمنا منها بعض المظاهر التي تركتها في الشعر المهجرى الشمالي ، تسوقنا الى الوقوف ملياً على الشعر المهجرى لنلمّ بالاسباب التي دعت بعض شعرائنا الى الهجرة ، ثم لنتعرف ببواعث الخلال الرومنتيكية في شعرهم وثورتهم على الشكل العمودى للقصيدة العربية ، ومن ثم نعمد الى بيان مظاهر الرومنتيكية في الشعر المهجرى الشمالي على وجه التخصيص .

بواعث الهجـــرة :

لقد كان الشعب اللبناني في عهد الحكم التركي ، في صراع مرير مع الفقر الذى فرضه سوء الادارة وضعف الدولة وانعدام العدالة . فلقد عمّ الفقر الاهلين، سوى نفر قليل كان يتمتع برغد العيش حيث تعشعش الاقطاعية في ذرى لبنان وسهول سوريا . هكذا كانت الحالة الاقتصادية في لبنان .(١) وقد تدهورت تجارته وانعدمت صناعاته . ولا تسل عن الحالة السياسية التي فرضتها الحكومة العثمانية حيث اتخذت من الاغتيال والتفريق ، وخنق الحريات منهجا للسيطرة على الامور . وهكذا ظلّ الكابوس العثماني جاثما على صدر لبنان الذى فقد شعاع الامل في النجاة . وهل يكون امل لمن تغشت عيناه بظلام الجهل ، وكبلت روحه النزعة الطائفية البغيضة التي اثارتها تركيا للتفريق وقتل الروح الوطنية . لقد ضاعت المصلحة العامة واريقت القيم الانسانية ، واسيء فهم الدين ، فكانت "حركة الستين" عام ١٨٦٠م .(٢) في ذلك الجو المشبع بالكراهية ، المليء بالضلالات رأى ادباء المهجر النور . لذلك رأينا ان نعرض بصورة خاطفة الى الاوضاع التي شبّ فيها هؤلاء ، وكان لها اكبر الاثر في حياتهم، كما كانت السبب المباشر في هجرتهم وربما في ادخالهم عالم الادب . وقد ساعدت البعثات التبشيرية والثقافية بطريقة غير مباشرة على الهجرة ، اذ فتحت الطريق امام اللبنانيين عندما شجعت الاتصال بين الشرق والغرب . كذلك فعلت مبادىء الثورة الفرنسية (٣) التي اثارت النفوس وخلقت فيها تمردا على الاوضاع ونزوعا الى الحرية ، حيث فعلت تلك النفحات التحررية فعل السحر في هذه النفوس الحساسة التي دفعها ميل اصيل نحو الحرية والمغامرة والانعتاق ، فكانت الهجرة وكان ادب مهجرى فيما بعد .

---

(١) وديع ديب ، الشعر العربي في المهجر الاميركي (بيروت : دار ريحاني للطباعة والنشر، ١٩٥٥م) ، ١٥ .

(٢) محمد عبد الغني حسن ، الشعر العربي في المهجر (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥م) ٥

(٣) نادرة جميل سراج ، شعراء الرابطة القلمية (مصر: دار المعارف ، ١٩٥٧ م) ، ٤٣ — ٤٥ .

بواعث الخلال الرومنتيكية في شعر المهجريين

يهمنا من الادب المهجرى الشمالي ، الفن الشعرى منه ، ويهمنا من ذلك الشعر تلك المسحة الرقيقة التي طبعت ذلك الشعر فجاء متماوج الانغام ، مذهب الاخيلة ، موشح الظلال مسرفا في العاطفة . فهو قلب في فكرة قبل ان يكون فكرة في عقل . تلك المسحة هي المسحة الرومنتيكية التي حولته من ادب مأجور مقيد في جسمه وروحه الى ادب حر طليق يرتفع في ملاعب الخيال ، ويتغذى على قلوب الشعراء . فهل هبت تلك النفحة الرومنتيكية على الشعر المهجرى هبوبا مفاجئا كهبوب الصّبا في الصحراء ، تأتي فجأة وتذهب كما اتت . ان للخلال الرومنتيكية في ذلك الشعر بواعث لا بد من ذكرها . وهي تخضع في طبيعتها الى عاملين رئيسيين ، الاول عامل حياتي والاخر ثقافي . نبدأ بالعامل الحياتي لانه اكثر ملازمة للمرء من ثقافته .

اثنان اعيا الدهر ان يبليهما لبنان والامل الذى لذويه
نشتاقه والعين فوق هضابه ونحبه والثلج في واديه

هكذا ظلّ لبنان يتراءى لعين ايليا ماضي الذى مثّل بهذين البيتين ، زمرة المهجريين في حنينهم وتطلعهم الى لبنان . اجساد في المهجر وارواح في لبنان ، نفوس معذبة دائمة الحنين ، وعيون دامعة معلقة بالافق البعيد حيث يتراءى الوطن ، بل الذات الكبرى للانسان حيث الاهل والاحبة والذكريات . هو الاغتراب (١) الذى اذكى نفوس هؤلاء حنينا ، سال شعرا على السنتهم . حقا " ما اقسى الغربة ، قلبها من حديد (٢) ، ولكن قلبا تسكن فيه ، لهو قلب اشد حساسية واغزر عاطفة واعمق اخلاصا . وهل اشد اخلاصا من ايليا ابي ماضي حين انشد :

لبنان فيكم ماثل ان كنتم في مصر او في الهند او في الصين
وحراككم لعلائه وسكونكم والى ثراه حنينكم وحنيني

ولقد زاد في اضرام نار الحنين في نفوس المهجريين ذلك التنازع المرير بين عالم المادة الغربي ، وبين الروح الشرقية التي تخلّق في عالم المثل اكثر مما تعيش في عالم الواقع . وهل اشد وقعا على تلك النفوس من ان تريق ماء الوجه في سبيل الحصول على لقمة العيش

---

(١) احسان عباس ومحمد نجم ، الشعر العربي في المهجر (بيروت : دار صادر ، ١٩٥٧م .) ، ٢٤٩ .
(٢) الفرد خورى ، الكلمة العربية في المهجر (بيروت : دار ريحاني للطباعة والنشر ، لا . ت .) ، ٣٨ .

التي حولت كثيرين الى باعة جوّالة ، خير من صورها مسعود سماحه (١) بقوله :

كم طويتُ القفار مشيا وحملي فوق ظهري يكاد يقصم ظهري
كم توسدت صخرة وذراعي تحت رأسي وخنجري فوق صدري

لقد طبعت تلك المرحلة من حياة هؤلاء بالحزن والالم المحض الذى جعلها بحق "المرحلة الرومنتيقية" (٢) في حياتهم ، لما بها من الالم واليأس والتحول . لذلك ظلّ هؤلاء في تلك الديار الغريبة ، غرباء النفوس وان زجّت بهم الحياة في اتونها . فاقرأ معي ذلك الشعور الغريب الذى بثّه ميخائيل نعيمه بقوله : "واذا ما انسجمت في الظاهر مع بيئة انا فيها ، ففي داخلي ما يجعلني ابدا غريبا عنها ، وهذا الشعور بالغربة ما انفك ينشط ويزداد على مرّ السنين حتى بدأت اعيش في عالمين ، عالم خلقته في نفسي لنفسي ، وعالم خلقه الناس للناس (٣) . أن هذا العالم الذى يتثاءب الغبار والدخان في اجوائه ، بينما تصطك اسنان الفولاذ والحديد في ارضه ، جعل هؤلاء المهاجرين في غربة واسار نفسي دائم ، ظلّ يحن الى اخضرار لبنان وزرقة سمائه . كما ولّد النقمة على تلك المدينة فهاجمها نعيمه بقوله : "فرحت اهاجمها بعنف وابين كل ما فيها من خداع رزيف وفساد في النظم والاخلاق بالمقارنة مع حياة الفطرة التي لا تزال تتمثل في القرية وابنائها" . (٤) فما اشبه العالم الذى خلقه نعيمه لنفسه بعالم روسو ، وما اشبه التقارب في نظرتهما الى المدنية وعالم الفطرة .

هل نكتفي بهذه اللمح الخاطفة في حياة هؤلاء والتي ادّت الى اتشاح اشعارهم بغلالة رومنتيكية شفافة . لا فهناك الحرية التي اشرقت في حياتهم فدفعتهم الى التحرر

---

(١) انيس الخورى المقدسي ، الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث (طبعة ثانية ، بيروت : لا . ط . ، ١٩٥٥م) ، ٢٨٩

(٢) نادرة سراج ، ع . س . ، ٥٩ .

(٣) ميخائيل نعيمه ، سبعون (بيروت : دار صادر ، ١٩٥٩ م .) ، ح : ١ ، ١٤٧ — ١٤٨ .

(٤) م . ن . ، ٢٣٥ .

والانعتاق من الماضي ، والبحث عن كل ما هو جديد الذى هو روح الرومنتيكية . ظهرت هذه الحرية بمظاهر ثلاثة ، حرية وطنية وحرية دينية واخرى لغوية .(١) لقد رتع المهجريون في ظلّ الحرية في المهجر . فلا تمييز بين الافراد ولا استبداد من قبل الحكام ، فانتشوا بتلك الخمرة ، سوى حثالة ظلّت تتراءى لهم في قعر الكأس ، وما عتمت ان استقرت مرارة في قلوبهم . انها الحالة في لبنان ، لبنان ذلك السجين المقعد الذى صلّى من اجله ومن اجل الشرق ، امين الريحاني عندما ناشد الحرية . "" متى تحولين وجهك نحو الشرق ايتها الحرية .... لتنيرى ظلمات الشعوب المقيدة والامم المستعبدة .(٢) ولقد تألم جبران كما تألم غيره ، ولكنه علل صديقه جميل المعلوف قائلا :(" سنعود معا الى البيت شاعرين بملامس روح روسو وفولتير ، ونكتب تكتب عن الحرية والاستبداد لنكون من المساعدين في هدم الباستيل الجاثم في كل بلدة في الشرق ".) (٣) وان القلب الذى آمن بالحرية كفر بلبنان لانه لم يحارب من اجلها ، فليكفنن ذلك الوطن وليدفن ، فلن يرحمه نسيب عريضة الذى اهاب بالاخرين :

اسكتوه
هوة اللحد العميق
واذهبوا لا تدفنوه ، فهو شعب
ميّت ليس يفيق

اما الحرية الدينية ، فقد تمثلت في صراع هؤلاء مع الطائفية ، ودعوتهم العامة الى التآخي ونبذ الاحقاد . حارب جبران التقاليد الدينية والمفهوم الديني لدى العامة ورجال الدين ، في قصه العديدة ومقالاته المختلفة التي اودعها كثيرا من عظاته وخطبه الدينية . لقد عذّب ذلك النزاع الطائفي نفوس المهجريين جميعهم ، فهذا امين الريحاني يتساءل بمرارة : " اليس في وسع المرء ان يعيش في هذا العالم دون ان تنطبع روحه بطابع

---

(١) انيس الخورى المقدسي ، ع . س . ، ٢٨٠ .

(٢) امين الريحاني ، الريحانيات (طبعة منقحة ؛ بيروت : دار ريحاني ، ١٩١٠م .) ، ١ : ٧٣ .

(٣) جميل جبر ، جبران (بيروت : دار ريحاني ، ١٩٥٨م .) ، ٦٦ .

الملّة وتصطبغ بصبغة الطائفية ٠٠٠٠٠ اليس له ان يحب ربه دون ان يبغض اخاه في الانسانية ٠" (١) اما الحرية اللغوية فنرجئ الحديث عنها الى حين ، على ان نعود اليها بعد ان نتحدث عن العوامل الثقافية لانها ذات صلة وثيقة بها ٠

كان لا بد من الاطلاع على الاداب الغربية التي تغلغلت فيها الروح الرومنتيكية حتى يتبيّن بامكان تلك النفوس ان تلد للعالم ما يعتمل في داخلها من احاسيس ومشاعر رومنتيكية ثورية ٠ ان الصحافة (٢) هي الوسيلة الاولى التي ساعدت على تبادل الثقافات وارتحال الفكر من الغرب الى الشرق ٠ وقد كثرت الصحف العربية في المهجر فكانت الغذاء الروحي للمغتربين ، فالصحافة ممثلة في مجلة " الفنون " لنسيب عريضه ، هي التي عرّفت ميخائيل نعيمه الى جبران ٠ يقول الياس ابو شبكه في هذا الصدد " في تلك الحقبة كانت حركة الرومانتزم ، قد توطدت في فرنسا ٠٠٠٠ سوى ان ادباء الشرق لم يتأثروا بهذه الحركة تأثرا ملموسا الا حين انتشرت الحركة الصحافية في اقطار الشرق ٠" (٣) عاضدت الترجمة الصحافة ، فقد اهتم بها ادباء المهجر كثيرا فكانت احدى الاهداف التي نصّ عليها دستور الرابطة القلمية وفي هذا قال نعيمه : "٠٠٠٠ ولذلك يجب تأليف لجنة للترجمة " (٤) وقال يصف مجلة الفنون ، وهي قلب الادب المهجري الشمالي آنذاك : " وقد حشاه صاحب الفنون بترجمات من الشعراء والكتّاب امثال غوركي ٠٠٠٠ مع البعض من كتّاب الغرب امثال اوسكار وايلد وفكتور هوجو ٠" (٥) ولم تقتصر الرومنتيكية على كتّاب الغرب ، فقد نقل كتّاب العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعض المظاهر الرومنتيكية

---

(١) امين الريحاني ، الريحانيات ، ٠٠٠ ١ : ٥١ ٠

(٢) وديع ديب ، ع ٠س ٠ ، ٥٠ ٠

(٣) الياس ابو شبكه ، روابط الفكر والروح بين الفرنجه والعرب (طبعة ثانية ، بيروت : دار المكشوف ، ١٩٤٥ م) ، ٧٩ — ٨٠ ٠

(٤) ميخائيل نعيمه ، سبعون ، ٠٠٠ ٣ : ٥٧ ٠

(٥) م ٠ن ٠ ، ٢٩ ٠

الى البلاد العربية فكان "الشدياق وسليم البستاني واديب اسحق وسواهم من اقطاب مدرسة الثورة الرومنطقية "(١) لذلك كان ظهور الادب المهجري " نتيجة لعوامل واسباب ، لا تختلف عن العوامل والاسباب التي ادّت الى ظهور المدرسة الرومنطقية في اوروبا ، ..... ان هؤلاء المثقفين الذين نشأوا في عهد التحرر الفكري ونضج شخصية الفرد اللبناني ... اخفقوا في محاولتهم تغيير طبيعة مجتمعهم .... ولذا هاجروا ... يستحثّهم اليأس الرومنطيقي ، فحملوا معهم بذور الرومنطيقية الى مهاجرهم الجديدة ."(٢) وهناك في امريكا كان الادب في اوجه ، وقد اتسم بمسحة رومنتيكية هبّت عليه من اوروبا المتّسم ادبها بالطابع الرومنتيكي فساعد ذلك الى جانب بعدهم عن الجو التقليدي في الشرق ، على انماء ميولهم الادبية الجديدة . فاقبلوا على المطالعة بنهم شديد فكانت الثقافة الشخصية هي العامل الاساسي في تعزيز الاتجاه الرومنتيكي عندهم . فهذا جبران " يقضي الساعات في حضن الطبيعة يقرأ آثار روسو وفولتير ."(٣) كما شغف بمطالعة اشعار كيتس الذي حذا حذوه في " العناية بالصقل والتفتيش عن الصور الفنية وعن الجمالية التي تثير الحس "(٤) اما وليم بلايك فهو الشاعر والفنان الذي اهتدى اليه جبران عن طريق رودين فشغف به ودعاه باخت روحه حيث قال : " كنت غريبا في الارض واليوم جاءني ليؤنس غربتي ، كنت اظنني تائها ، وها هو بلايك يسير امامي ، ترى ماهي القرابة التي تجمعنا . العلّ روحه عادت الى الارض وارتدت جسدي ثوبا ."(٥) لم يكن جبران هو الوحيد الذي اقبل على المطالعة ، فقد كان يحدو الجميع اليها ميل فطري وجوع نفسي الى المعرفة . اطلع نعيمه على الادب الروسي كما اطلع على الادب الاوروبي والمفاهيم الرومنتيكية التي انبثقت عن تعاليم روسو . ففي رسالة له بعثها لاخيه نسيب يقول : " اراك تعشقت روسو واسلمت له بكل افكارك ومشاعرك ... اذا قرأت كتابا

---

(١) احسان عباس ومحمد نجم ، ع .س. ، ٣١ .

(٢) م .ن. ، ٤٣ .

(٣) جميل جبر ، ع .س. ، ٢٤ .

(٤) م .ن. ، ٣٣ .

(٥) ميخائيل نعيمه ، جبران خليل جبران (طبعة ثالثة ، بيروت : مكتبة صادر ، ١٩٣٤م .) ، ١١٨ = ١١٩ .

لروسو او سواه وشعرت بعد قراءته بان العالم انقسم في نظرك الى قسمين ... فاعلم انك لم تعثر الا على قسم من الحقيقة ... فلا تقف هناك ، بل تابع السير والتفتيش فقد فات روسو ان الطبيعة التي كان يبشر بالعودة اليها هي ام الحمل كما هي ام الذئب ." (١)

لقد تمثل بقية ادباء المهجر الشمالي بجبران الذى كان اول من تسلق جدار التقليد وانطلق منه على عالم الادب الغربي فعرف الذات الرومنتيكية وبذلك اكتشف ذاته الكامنة فيه وحرر ادبه من قيود الشكل ومن رقبة التقليد .

تلك الروح التي خلقت من جديد هل تستطيع ان تسكن جسما باليا قديما . هل تستطيع الذات الرومنتيكية الثائرة ان تتقولب في قوالب تقليدية نخرة . ان القصيدة العربية التي كانت في معظمها مجموعة من الاوصاف الحسّية والتشبيهات المتداولة والبراهين العقلية والاقيسة المنطقية مكبلة بالوزن والقافية ، لم تعد تلائم تلك النبضات الحيّة الشعرية التي تنبع من قلوب الشعراء . لقد تحطم عمود القصيدة القديمة بين ايدى هؤلاء المهجريين الشماليين الذين بدأوا بتغيير المبنى تماما كما فعل رومنتيكيو الغرب .

لست مني ان حسبت الشعر الفاظا ووزنا

لم يكن ايليا ابو ماضي ليقول هذا القول لو لم يتصل بجبران ونعيمه ونسيب عريضه ، حيث اختمر "بالخميرة الجديدة ." (٢) التي اطلقها نعيمه على تلك النفحة التحررية الجديدة . اما امين الريحاني ، فقد كان من اشد المتحمسين للتحرر من قيود اللغة البالية ، لقد ادرك ان "رقيّ اللغة في الخروج على العقيم السمج من مألوفها مع المحافظة على روحها ." (٣) على ان امين الريحاني غالى في تلك الحرية حتى غدا شعره في "هتاف الاودية" نثرا شعريا. ولم يكن جبران باقل حماسة وتهجم على الاساليب البلاغية واللفظية التي تقبض على الالفاظ دون

---

(١) ميخائيل نعيمه ، سبعون ، ٢ : ٢٧١ — ٢٨٢ .

(٢) م . ن . ، ١٥٢ .

(٣) امين الريحاني ، الريحانيات ، ٢ : ١٤١ .

روحها . لقد اراد اللغة "نظرة في عين المظلوم ودمعة في جفن المشتاق وابتسامة على شفة المؤمن" (١) انه سيأخذ من الالفاظ ما يستطيع ان يتعدى ذاته فينقل السامع الى المشاعر الانسانية العميقة . اما نسيب عريضه فقد كان دفاعه صامتا ينطق عنه شعره في "الارواح الحائرة" . ففي قصيدته "انا في الحضيض" يقول :

انا في الحضيض
وانا مريض
افلا يد تمتد نحوى بالدوا
وتبث في جسدى ملامسها القوى

وكذلك في قصيدته على الطريق :

لماذا وقفت بخوف وحيرة
ايا نفس، عند الطريق العسيرة
الا امش، فان الحياة قصيرة
الا امـــش

على ان ميخائيل نعيمه هو الذى جعل تلك الانتفاضات التحررية في اللغة ، دستورا واضح المعالم راسخ البنيان في كتابه "الغربال" الذى اودعه نقمته على هؤلاء المترمتين . ففي مقالته "نقيق الضفادع" يصف هؤلاء بقوله : "لا يرون للادب من قصد الا ان يكون معرضا لغويا يعرضون فيه على القارىء كلما وعوه من صرف اللغة ونحوها ، وبيانها وعروضها ، وقواعدها وجوازاتها ." (٢) اما هو فيرى ان اللغة هي "ترنيمة البلبل ونوح الورد وخرير الجدول وانجذاب ابدى لمعانقة الكون باسره" (٣) .

لا بد لنا من كلمة اخيرة نجمل بها بواعث الخلال الرومنتيكية في الشعر المهجرى الشمالي ، من حياتية وثقافية . اما العوامل الحياتية فهي الاغتراب والشعور

---

(١) انيس المقدسي ، ع .س. ، ٢٨٦ .

(٢) ميخائيل نعيمه ، الغربال (مصر : دار المعارف بمصر ، ١٩٢٣م .) ٨٦ .

(٣) م .ن . ، ٦٦ .

بالوحدة والحنين الى لبنان ممزوجا بعواطف الحزن والالم الذى عززه ذلك الصراع بين الروح الشرقية المثالية ومادية الغرب وحضارتها الالية المصطنعة . امله الحرية فكانت نقطة الانطلاق.وقد عزز العامل الحياتي ، العوامل الثقافية التي تمثلت في اطلاع هؤلاء على الادب الغربي الرومنتيكي عن طريق الدراسة في المعاهد الغربية ، ثم عن طريق المطالعة الشخصية يعاضدها الصحافة والترجمة التي عملت على تزاوج الفكر الغربي مع الروح العربية .

الفصل الثالث

المظاهر الرومنتيكية في الشعر المهجرى الشمالي

لقد رأيت لزاما عليّ ان اتعرض بصورة خاطفة الى الحركة الرومنتيكية في الادب الغربي ، لعلاقتها المباشرة بموضوع البحث ، كما اضطرتني طبيعة البحث ايضا الى التطرق لبواعث الخلال الرومنتيكية في الشعر المهجرى ، والتي كانت بمثابة صلة الوصل بين الرومنتيكية والشعر المهجرى . والان ننتقل الى موضوعنا الرئيسي الا وهو المظاهر الرومنتيكية في الشعر المهجرى الشمالي . لقد تناولت في هذا البحث اهم المظاهر المميزة للحركة الرومنتيكية والتي ظهرت بوضوح في الشعر المهجرى ، وهي المظاهر التي تحدثت عنها في المقدمة كما مرّ . اما هذه المظاهر ، فقد بحثتها كلا على حدة مراعية في ذلك التطور النفسي — ان صحّ هذا التعبير — للحركة الرومنتيكية من حيث ارتباط هذه المظاهر بتلك الحركة منذ نشوئها . فقد انطلقت هذه الحركة من الطبيعة حيث اتخذت العاطفة نبراسا لها ، فكانت المعرفة لديها تتأتى عن طريق القلب والشعور . ونتيجة لذلك تعثرت خطاها وصدمت بواقع المجتمع وحواجز المنطق ، فغلب عليها التشاؤم والقلق وكثر ذكر الموت لديها . وهذا البحث هو جولة قصيرة مع هذه المظاهر كما ظهرت في الشعر المهجرى الشمالي .

شعر الطبيعة

كان مجمل الشعراء قبل الرومنتيكية اذا ما تحدثوا عن الطبيعة ، يمرون بها مرورا عابرا ، فعالمهم البيت والمجتمع والحياة الجماعية الصاخبة . لذلك لم تتعد تجربتهم الشعورية بالنسبة للطبيعة ، سوى الاعجاب والدهشة الجمالية العابرة ، فلو يعنوا بغير الوصف الحسي اوالالتفاتة التأملية التي سرعان ما تزول . ولا نستطيع ان ننفي الوجدانية في الوصف كما ظهر لدى بعض الشعراء نفيا كليا ، غير ان مفهوم الطبيعة وعلاقتها بالذات البشرية وضح على ايدى الرومنتيكيين . فالطبيعة في الشعر المهجرى هي طبيعة الرومنتيكيين الذين عاشوها باعصابهم واحاسيسهم وعقولهم فأثرت في عواطفهم وتفكيرهم وامتزجت بتجربتهم الشعرية امتزاجا قويا . لماذا لجأ الشاعر الى الطبيعة . وماذا وجد فيها . وكيف تراءت له ،

اسئلة كثيرة تراود اذهاننا ، ولكن الشعر المهجرى فيه الكفاية للاجابة على هذه الاسئلة . فالشعور بالغربة وعدم التوافق الروحي بين الشاعر والمجتمع هو الذى حدّا بميخائيل نعيمه ان يرى نفسه لغزا مبهما اذ يقول :

وغدا غريبا بين قوم كان قبلا منهم
وغدوت بين الناس لغزا مبهـــم (١)

انه في اسار روحي وعزلة نفسية ، فلينطلق من هذا العالم الى عالم ارحب صدرا واصفى عنصرا واطيب جوهرا ، الى عالم الطبيعة البكر حيث تجرى " الينابيع الربانية "على وقع انغام الاهية تدغدغ سكينة الشاعر وتنزع الوحشة من نفسه .

ايغمس شفتيه في كوب من الخمر
من يطفىء اوامه من ينابيع ربانية
ام يطرب لرعشة الاوتار من سكينته ترتعش ليل نهار
بانغام اجرام . لله ما اقصاها عن جرمكم هذا (٢)

انه الملال والسآم من الناس ومن الحياة هو الذى جعل الشاعر يرى ان " ساعة في الخلاء .." (٣) لهي خير من اعوام تقضى بين جدران القصور . في هذا الخلاء يحلو للشاعر ان يغدو راعيا يرعى الغنم ويسامر النجوم غير عابىء بالعواصف والامطار وهذه الناى في يديه تعانق انغامها اسماع القطيع فيجدّ في اثره :

انفخ الشباب اشدو طربا وقطيعي سائرا في اثرى (٤)

ولقد تجسم هذا الحلم للشاعر فعانقت روحه ذلك الغاب ومن به وهمس مغتبطا :

ان في قلب الغاب اثرا من آثارى ، ان قلبي في عقل هذا القروى وعقله

---

(١) ميخائيل نعيمه ، همس الجفون (بيروت : مطابع صادر ، ١٩٤٣ م .) ، ١٣ .
(٢) م . ن . ، ١٠٠ .
(٣) ايليا ابو ماضي ، الجداول (نيويورك : مطبعة مرآة الغرب ، ١٩٢٧ م .) ، ٣٠ .
(٤) رشيد ايوب ، الايوبيات (لا . بل . لا . مط . ، ١٩١٦ م .) ، ٢١ .

في قلبي الخفي ". (١) هذه الحياة الرعوية الساذجة ظلّت تجذب اليها تلك النفوس الهائمة التي وجدت في احضان الطبيعة تحقيقا لرغائبها فبدت حياة المدن بغيضة ممقّة . ولعل الشاعر كان مؤمنا بعالمه الجديد مغتبطا به كل الاغتباط ففارق المدن وهو يردد :

لو كان يألف بلبل غرد قفصا ، احب الشاعر المدنا (٢)

هكذا يمم الشاعر وجهه صوب الطبيعة فوجد فيها عالما حيا يحوي ما افتقر اليه وما هفت اليه نفسه المعذبة المنطوية ، لقد وجد الخلود في الطبيعة فودت روحه التي تعاني وقع خطوات الموت ، ان تمتزج مع الطبيعة فتظل تصغي لخرير الغدران " وهو يتلو اناشيد الخلود ". (٣) ورغم تلك اللذة التي يجدها الشاعر وهو يعيش في عالم الطبيعة الخالد ، فقد عذبت هذه العقيقة بعض الشعراء الذين ادركوا ان هذه اللذة سرعان ما تخطفها يد المنون ، تجاوزوا لذة الساعة فرأوا الموت يتربص بهم ، لذلك تألم بعضهم فساءل البحر بمرارة : " فلماذا يا ترى امضي وتبقى ؟ ..

لست ادري (٤)

تلك النفس الحساسة التي حنت الى الخلود في الطبيعة ، استطاعت ان تلمس الوحدة التي تشمل المظاهر الكونية المختلفة ، فهذه وان بدت ملوّنة الظلال منوعة المعاني متعددة الحركات ، فقد امتزجت عناصرها واتحدت روح الاشياء فيها فازالت الثنائية والضدية في الجوهر وان بدت ظاهرة للعيان في الشكل والمظهر . مثل هذه الفكرة نبتت في اذهانهم لانهم لم يأخذوا الاشياء على ظواهرها ، بل حاولوا ان ينفذوا الى روح الاشياء . فرأوا انها من معدن واحد . وقد جسّد هذه الفكرة جبران في " مواكبه " التي تسمعنا صوتين ، صوتا ينطق بالثنائية في المدن ويعدد مظاهرها في مفاهيم البشر ، وآخر ينفيها من الغاب الذي

---

(١) امين الريحاني ، هتاف الاودية (الطبعة الاولى ، بيروت : دار ريحاني ، ١٩٥٥م) ، ٤٧ .

(٢) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب (الطبعة الاولى بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠م) ، ٢١٣ .

(٣) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٢٢ .

(٤) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ٩٣ .

يمثل الطبيعة المثالية لدى هؤلاء المهجريين حيث تلتقي الاشياء في نقطة واحدة توحد بينها :

ليس في الغابات عدل لا ولا فيها العقاب
فاذا الصفصاف القى ظله فوق التراب
لا يقول السرو هذى بدعة ضد الكتاب (١)

ففي الغاب تتوحد المادة والروح فلا حدود بين الاثنين ، بل امتزاجا جعل هؤلاء الشعراء لا يبصرون الفروق التي تفصل المادة عن الروح :

لم اجد في الغاب فرقا بين نفس وجسد (٢)

ولم تنحصر هذه الوحدة في الطبيعة التي اوحت بهذه الفكرة ، فقد عممها هؤلاء الشعراء حتى شملت المفاهيم والقيم المختلفة . فهذه فكرة الخير والشر التي تمثل النقيضين في كل شيء ، بدت لهؤلاء ذات جوهر واحد فلا فرق بين الشر والخير لان كليهما ينبع من نبعة واحدة ، وقد تجسمت هذه العقيدة في صورة حلم زالت فيه الفروق بين الخير والشر ممثلين في صورة ملاك وشيطان :

سمعت في حلمي ويا للعجب سمعت شيطانا يناجي ملاك
××××
اليس انّا توأمان استوى سر البقاء فينا وسر الهلاك؟
الم نصغ من جوهر واحد ان ينسني الناس اتنسى اخاك ؟ (٢)

مثل تلك المساواة والوحدة ، حرية بان تجعل هؤلاء الشعراء يؤمنون بان تلك الطبيعة هي مصدر الخير ، فطبيعة تتساوى فيها الكائنات وتختفي فيها معالم الشر ، لهي عالم خيّر فيه الصلاح والقداسة حيث " كل نغمة من نغمات الربيع ، روح رسول عظيم وديع " . (٤) وقد ظلت هذه الفكرة عالقة باذهانهم حتى بعد ان اكتشفوا ان في الطبيعة ويلات

---

(١) جبران خليل جبران ، المواكب (مصر : مطبعة المقطم ، ١٩٢٣ م) ، ١٧ .
(٢) م . ن ، ٢٦ .
(٣) مخائيل نعيمه ، ع . س . ، ٥٧ .
(٤) امين الريحاني ، ع . س . ، ٢٤ .

وفيها شرور دعتهم الى التأمل والمعاناة .

ان المزاج الرومنتيكي المتقلب جعل الشاعر يرى الطبيعة صدى لذاته التي تغلغلت الى صميم الاشياء فتأثرت بشتى مظاهر الطبيعة وشاركت الكائنات الحيّة العيش فيهـــا . لذلك كثرت صور الطبيعة في الشعر المهجري فمن حين الى آخر ترتسم في مخيلتنا صورة جميلة لطائر او وردة او غدير ، وقد غلفت بظلال ملونة العواطف تارة تبدو زاهية بادية الغبطة ، وتارة تبدو حزينة تغشيها الآبة والوحشة ، فهناك :

على غصن متوحد
من شجرة متوحدة
وريقة متوحدة
غارقة في احلامها (١)

بدت هذه الوريقة لعين الشاعر وقد غلفها الضباب الحالك وعصفت بها هوج الرياح "ناسجة من سواده كفنا للارض فائق البياض" . (٢) انها عين الشاعر تشاهد ذاتها في تلـك الورقة التي تجسمت فيها عواطف تكمن في لاوعية وشعوره ، فما الوحدة وما الاحلام بالنسبة لتلك الوريقة الا وحدة واحلام الشاعر . انه عين ترقب الطبيعة بحذر واشفاق ، فلم تغفل ذلك البلبل الشريد الذي اجرّد روضه الخريف فهام على وجهه "وضلّ الطريق الى عشه" . (٣) لم يكن وصف الطبيعة عند هؤلاء وصفا حسيا واقعيا نقليا بقدر ما كان وصفا وجدانيا ، فقد نرى في شعرهم كثيرا من الصور التي البست ظلالا نفسية جميلة رغم انها صور توحي بالحزن واليأس . فصورة الخريف الذي تشتد ظلمة يومه وتوشك شمسه على المغيب تحلو لعين الشاعر التي تنظر اليها من خلال النفس والرؤيا فترى "امواج النور" على جبين الخريف "كندى الفجر على زنبق نيسان" . (٤) ان ، ايلول الشاعر ، هو غير ايلول الطبيعة ففيه تكتسي الارض ابهى

---

(١) ميخائيل نعيمه ، ع . س . ، ١١٨ .
(٢) م . ن . ، ص . ن .
(٣) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ٢٠ .
(٤) امين الريحاني ، ع . س . ، ٢١٨ .

منظر حيث يتدفق النور وتفوح انفاس الثرى :

فالنور سحر دافق والماء شعر رائق ، والعطر انفاس الترى (١)

وتلك الصورة الجذلة للخريف تقابلها صورة اخرى موشحة بالحزن والالم الذى جمع بين ذات الشاعر المقبضة وبين تلك الورقة المرتعشة " التي استحال اخضرارها اصفرارا يحاكي وشاح الغروب ." (٢) فاوحى له مجيء الخريف " نذيرا ، يدق على بابها " وهو ايضا نذير الموت والزوال في نفسه . هكذا اختلفت الاوصاف باختلاف الامزجة رغم ان الموصوف واحد في الحالتين . فهذه ايضا اوراق الخريف " الساقطة الصفراء ، تبدو لعين شاعر آخر روحا ثائرا وفكرة حائرة ترددت على الشجرة فلفظتها وهي تلفظ النزع الاخير ، ولكنها بدت صورة جميلة فناجاها قائلا :

تناثرى تناثـــــرى يا بهجة النظر (٣)

وقد ينتقي الشاعر مظاهر متعددة من الطبيعة ينظمها في عقد واحد فيحيلها تجربة شعورية او يعبر عنها فكرة ذهنية " فالمساء " (٤) هو الاطار الذى ضمّ صورة السحب الراكضة التي اوحت للشاعر بالفزع والخوف ، كما ضمّ صورتي الشمس والبحر ، الاولى في اصفرارها والثاني في صمته الخاشع المتزهد . ولعل خير من تحدث عن فصول السنة التي اعتنى بها المهجريون ، هو الشاعر رشيد ايوب الذى ربط بين الفصول الطبيعية وبين احاسيسه وانفعالاته التي تصطرع في اعماق ذاته :

احب الشتاء لان له ضبابا كهمي ثقيل كثيف
واهوى الربيع بانفاسه دواء لجسمي العليل الضعيف
واصبو الى الصيف مستأنسا بوحشة ليلي الطويل المخيف
وتشتاق نفسي الخريف وقد تجنّى عليّ زمان الخريف (٥)

---

(١) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ٧١ .
(٢) رشيد ايوب ، هي الدنيا (بيروت : دار صادر ، ١٩٤٠م .) ١٠٩ .
(٣) ميخائيل نعيمه ، ع . س . ، ٤٤ .
(٤) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ٣٣ .
(٥) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٥٤ .

لم يكن احساس الرومنتيكيين بالليل باقل من احساسهم بالمناظر الطبيعية والفصول خاصة الخريف ، فقد تحدثوا عن الليل فكان العالم الذى يعيشه الشاعر دون ان يشاركه فيه احد :

فانا دون الملا شأني عجيب ليس يحلو لي سوى الليل الطويل (١)

انه الليل الذى تضل فيه العين المبصرة في خفايا الظلمات ، بينما يبدو للشاعر عالما مليئا بالمعاني والاسرار التي يراها من خلال حدقة الرؤيا . فقد تمنى الشاعر ان يطول ذلك الليل الذى ما برح "ابن الدهور" الخالد . ففيه تجلو الظلمات خفايا الكون "لدى الشاعر المختلي" (٢) الذى يحدق في الافق حائرا ، يقضي لياليه الطوال ينشد الاسرار . فاذا ما اعيته الحيل وعجز فؤاده عن احتضان الشكوى ، ففي قلب الغاب يدفن سره على مرأى من الليل البهيم الذى يبكي الشاعر ودفينه "ان لليل دموعا لا تراها مقلتان" (٣) لهذا كان الليل مدرعزاء وسلوى ومجلبة للسكينة التي شوشتها كد النهار . في الليل تتلاقى اطياف الاحبة وتهب الذكريات من رقدتها ، فيحلو للشاعر ان يطول ليله ليرشف المزيد من كؤوس الحب ويسكر بخمرة الهيام حيث :

تتلاقى القلوب في الحب تلاقي الاجفان بالاجفان (٤)

هذا هو ليل الاشواق الذى عاشه الشعراء بقلوبهم وتمنوه العمر كله حيث يغدو الشاعر وحيدا الا من الذكريات والليل ، وعندها يخطر طيف المحبوبة في رؤى الشاعر . ولكن وصل ذلك الطيف قلما اتيح للشاعر فعكف على ذكرياته ليحييها من جديد :

رب ليل نجومه ضاحكات مثل احلام غادة في صباها
لمست اصبع السكينة اشواقي فهبت مذعورة من كراها

× × × ×

ومعي صاحب رقيق الحواشي تجد النفس في رؤاه رؤاها (٥)

---

(١) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٣٠ .

(٢) رشيد ايوب ، اغاني الدرويش (بيروت : دار ادر ، ١٩٢٨م .) ، ١٠٣ .

(٣) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ٤١ .

(٤) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ٥١ .

(٥) ايليا ابو ماضي ، الخمائل (طبعة ثانية ، بيروت : مكتبة صادر ، لا ت .) ، ٢٤ .

لقد تراءت الظلمة للشاعر خيوطا شعاعية خفية تصله "بوحي الالهام" (١) حيث تكتحل عيناه باشراق الرؤيا فيرى "روضة الاحلام" وهناك في تلك الروضة يعيش الشاعر تجربته التي تختلف باختلاف المزجة والاحاسيس النفسية التي يعايشها، فقد تغدو تجربة محب يصف ليله قائلا :

وسكون الليل بحر ... موجه في مسمعك
وبصدر الليل قلب ... خافق في مضجعك (٢)

وقد تكون تجربة روحية قدسية، تزهد فيها نفس الشاعر وتعيش في لحظة صوفية فيها من الغيبوبة ومن الانجذاب بقدر ما فيها من الخشوع والترقب :

لو تراني تحت استار السكون
في الدجى وحدي
شاخصا نحو السما كلي عيون
فاقد الرشد
كنت تدري كيف في الدنيا يكون
منتهى الزهد (٣)

على ان الطبيعة ليست فقط مصدر الالهام والشعور، ولكنها ايضا عالم الحقائق والخفايا التي تلحّ على الشاعر فيقف دونها مبهوتا متأملا فحينا تتجلّى له الحقيقة، واحيانا تختفي في قطرة ندى او رعشة طائر :

ما حولنا عالم خفي
تدركه الروح في السكون (٤)

فالطبيعة هي عالم من الرمز الذي تدركه الارواح دون عناء او كدّ ذهني "وقطرة

---

(١) رشيد ايوب، اغاني الدرويش، ١٠٦.

(٢) جبران خليل جبران، ع.س. ٩٦.

(٣) رشيد ايوب، اغاني الدرويش، ١٦٧.

(٤) نسيب عريضه، مناهل الادب العربي (بيروت: مكتبة صادر، ١٩٥٠م.)، ٣٠: ٥٧.

الطلّ هي لغز غامض كما ان " كل برعم من البراعم عقدة من عقد الكون ، سر من اسرار الحياة ."(١) لذلك هام الشاعر على وجهه في منحنيات الشعاب وبين الصخور يسائل الشطآن والامواج عن سر الخليقة ، عن الكون وعن الله :

تائها في الليل ما بين الصخور عند شاطي البحر في ضوء القمر
اسأل الامواج عن اهل القبور وعن الافلاك استقصي الخبر (٢)

ولكن هل تدرى الطبيعة الخبر ؟ هل تشبع ذلك الجوع وتملأ ذلك الفراغ الهائل في اعماق الشاعر .. هل تدرى الشهب وهل تعلم السحب لماذا وجدا . لقد ادرك الشاعر انها تسبح مثله في عالم الغموض حيث يخيم ضباب الجهل ، فتسائل في قرارة نفسه وكان جوابه مثل سؤاله " لست ادرى ."(٣) الا ان الطبيعة رغم جهلها ، اوحت للشاعر بافكار وتأملات ظلّت تعتمل في نفسه وتعذب روحه . فهو اما مستفسر حائر او متألم هازئ من حقيقة الحياة امام مأساة الطبيعة :

ورقة بالية من شجرة عالية
تحملها العواصف الى حيث لا تدرى الايام
اهذى هي الحياة . اهذا هو الموت (٤)

تلك الورقة الميتة آلمت الشاعر الذى سرى دبيب الموت في مخيلته كرؤيا قاتمة ، فعلت شفتيه سخرية مريرة هي مهزلة الحياة وظلم القدر . ولكن ليست الطبيعة قاتمة الصور دائما ، ولكنها ايضا عالم واعظ يعظ الشاعر فتمتلئ نفسه بالعبر :

كم وقفة لي عند شاطئ نهرها لا استقي منه وروحي تستقي
متعلما منه التواضع والفدى والصفح عن عبث الجهول الاحمق

××××××

ضيعت عند الواعظين سعادتي ووجدتها في واعظ لم ينطق (٥)

---

(١) امين الريحاني ، ع . س . ، ٤٥ .
(٢) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٣٢ .
(٣) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ١٠٨ .
(٤) امين الريحاني ، ع . س . ، ٦٦ .
(٥) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ٢٢٣ .

وان لم تكن الطبيعة مصدر معرفة تدعو الشاعر للتأمل ، او لم تكن مصدر راحة وطمأنينة ، كما انها ليست بالواعظ ، فهي لا تعدم كونها مجالا لبثّ الشكوى وكشف السرائر :

تشتكي ارواحنا ظلم المنون
والقـــدر
للسما ، لليل ، للفجر الجلي
للربـــى
للاقاحي الذابلات الزاويـه
كالامانـــي
للسواقي النائمات الباكيـــة
كالغوانـــي (١)

لم تنته جولتنا مع المهجريين في الطبيعة بعد . بل ان لجوءهم الى الطبيعة كان اعمق من ان يقتصر على كونه فرارا من المجتمع ونشدانا للخير والمعرفة . لقد كان حاجة نفسية ملحّة جعلت من الطبيعة الذات الثانية للشاعر ، بل هي صورة من نفسه لديها وجد المشاركة الوجدانية حيث تمده باظلال نفسية خلعها عليها من نفسه . انها الطبيعة السمحة التي تحتضن الشاعر كلما هرع اليها من شرور العالم ومن ذاته المضطربة .
وهناك في المجاهل وقرب السواقي وفي ظلال الغاب ، اخلو لنفسه التي انفرد بها لا انس له سوى الوحدة والطبيعة :

هوذا اترابي قد رحلـــوا في الغاب يقودهم المرح
وبقيت انا وحدي سكرانـــــا يرقص في قلبي الفـــرح
فجلست على كتف النهـــر ما بين العوسج والزهر (٢)

لم يعان الشاعر الوحشة عندما حبته الطبيعة انسها ، فراقت له الوحدة واراد ان يتعرى من ذاته الاجتماعية التي البسه اياها المجتمع ، وان يخلو لنفسه الحقيقية التي تضجّ في

---

(١) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ١٩٩ .
(٢) ميخائيل نعيمه ، ع . س . ، ٤٠ .

اعماقه ، فتسرى اليه الرعشة المحببة وتمده انفعالاته بالاحاسيس اللذيذة في ذلك الجو الرقيق فيخاطب الشاعر غابه وقد جاءه باثا اياها سره وامانيه :

يا غاب جئناك للتعرى
انا ونفسي ولا حـــرام
فليذع الغصن ما يراه
هنا اذا احسن الكلام (١)

وهنا يبدأ الشاعر برواية قصته ، قصة الحب الخالد ، ويمرّ امامه طيف الحبيبة ، فيتراقص الزهر ويغني البلبل ، فيهب الشاعر وقد خال الغصن الراقص ذلك الطيف وشجو العصفور مناجاته . فيغتبط وقد ظن أن كل ما في الطبيعة يحدّث عنها ، فالسواقي لكي تحدث عنها والاقاحي لكي تذيع شذاها .(٢) بينما حفيف النسيم في مسمع الاوراق نجوى ، تبثها شفتاها (٣) وقد تتجسد هذه الاطياف والاخيلة في قلب الشاعر فيدعو حبيبته الماثلة في مخيلته ليسيرا في الغاب ، بعيدا عن العيون :

حيث اغاني الحب في زهوه قد رددتها الطير فوق الغصون (٤)

وقد يدرك الشاعر ان ذلك كله محض اخيلة واوهام فيمسي ولسان حاله يقول :

الطير تغني للزهـــــر ويظن الطير تساجله
الزهر ترحب بالفجـــــر ويظن الزهر تغازله (٥)

انما لا حاجة للشاعر الرومنتيكي بواقع التجربة في تعاطي الحب طالما انها تجربة يعانيها معاناة شعورية يقينية . تكفيه الذكرى في الحب ليرويها بين الوهاد وعند منعطفات

---

(١) نسيب عريضه ، ع . س . ، ٥٧ .
(٢) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ٥٣ .
(٣) م . ن .
(٤) رشيد ايوب ، هي الدنيا ، ٥١ .
(٥) ايليا ابو ماضي الجداول ، ٦٨ .

الجبال وفي ظلال الغصون • ثم يكفيه ان يشدو ويردد حديثا دار بينه وبين المحبوبة يتلوه على مسمع من الغاب :

كم جلسنا تحت صفصافاتها اشتكي الوجد وتشكو لي هواها
والصدى في الغاب لن ننبس معا نبسة الا وعاها وحكاهـــا
نتناجى ويدى في يدهـا فاذا لاح خيال نتلاهـــى (١)

لقد كانت الطبيعة صلة الوصل بين الشاعر وبين من احب ، فهي ذلك الاطار الذى يجمع الشاعر بالحبيبة وذكريات الغرام • لذلك ظلّ الشاعر يهفو اليها جنة للاحلام ودارا للتصابي :

يا لهفة النفس على غابة كنت وهندا نلتقي فيها
جنة احلامي واحلامها ودار حبي وتصابيهـا (٢)

هكذا تمثل المهجريون الطبيعة صدرا خافقا ، وقلبا حانيا يضجّ بالاحاسيس والعواطف التي احسها الشاعر ، فاخلد للطبيعة يعانق في احلامه طيف المحبوبة ويشاهد في رؤاه ايات الغرام • وهي ايضا ملجأ يفرّ اليه من المجتمع ، وعالم اسرار يحيه بروحه وشعوره • ومن قلب الطبيعة ننطلق الى قلب الشاعر الذى جسّد العاطفة في شعر •

شعر العاطفة

ان العاطفة هي الدعامة الاولى التي قامت عليها الرومنتيكية حيث رذلت العقل واسلمت زمام الامور للقلب الذى آمنت به اشد الايمان ، فلون الشعر الرومنتيكي بشتى العواطف ومدّه باقوى الانفعالات واعمق الاحاسيس • على ان ذلك لا يدعونا الى الاعتقاد بان العاطفة كانت معدومة في الادب قبل الرومنتيكية ، فان الانسان لا يستطيع ان يتجرد عن المشاعر والاحاسيس التي تحتمل في نفسه أكانت احاسيس ذاتية ام انسانية عامة • والذى اردناه هو ان تلك العاطفة لم تحظ من نفس الاديب العناية التي حظيت بها من قبل الرومنتيكي ، خصوصا عندما حدّت الكلاسيكية كثيرا

---

(١) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ٥٦ •
(٢) ايليا ابو ماضي ، الخمائل ، ٩٠ •

من زمام العاطفة . ولا يأخذنا الحديث عن العاطفة في الادب الرومنتيكي عن موضوع البحث الاصلي ، وهو تأثير الرومنتيكية في الشعر المهجرى وطبعه بطابعها العاطفي الذاتي . فلا يستطيع المرء الا ان يحسّ تلك العاطفة الفياضة التي اصطبغ بها الشعر المهجرى الشمالي حيث بلغت احيانا حدّ الاسراف . ولا بد من القول بان العاطفة عند شعراء المهجر ليست مقصورة على كونها عاطفة ذاتية شخصية فحسب ، فقد شملت الانسانية جمعاء . واول ما تمظهرت هذه العاطفة عند هؤلاء بالحنين الى الاوطان والانجذاب نحو الحمى الذى ظلّ يتراءى للشاعر رغم البعاد فتقطر من عينه دمعة وتولد قصيدة :

اذا ما ذكرت الاهل فيه فانني ... لدى ذكرهم استمطر الدمع منصبّا
فلله هاتيك الربى وربوعها ... فانني قد ضيعت في تربها القلبا (١)

الا ان الذكرى تظل وتبقى معها الالم الوجيع ، فالدمع لا يستطيع ان يمحو صورة الوطن الماثلة في حنايا الفؤاد ، وان استطاع ان يهدّىء الروع الى حين . فلم يعدم الشاعر ما يذكره بلبنانه ويثير فيه التحنان حتى في ايام الربيع التي تصفو فيها النفس وينجلي الكدر:

غربة امست حياتي وانتزاح
ومناجاة ورعي الشهب

قلت في نفسي وللنوم صدود
او حتى غربة في مضجعي (٢)

وقد يتلهّى الشاعر عن وطنه ويشغله الصراع مع الحياة في دار غربته ، فينصرف الى العمل وكسب القوت فيصادفه النجاح قليلا والفشل كثيرا ، وهنا تقفز صورة لبنان من قلبه الى ذاكرته واذا به موزع النفس بين البلد الذى هاجر اليه والبلد الذى هاجر منه ، فهو في " نيويورك " بجسمه و " بالروح في الشرق على تلك الهضاب " (٣) ويدرك الشاعر ان لبنان لم يفارقه ولكن خبت ذكراه الى حين كما ثوت الابتسامة في ثنية الفجر :

في ابتسام الفجر في صمت الدجى ... في اسى تشرين في لوعة آب
انا في الغوطة زهر ونـــدى ... انا في لبنان نجوى وتصابي

---

(١) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٣٩ .
(٢) رشيد ايوب ، اغاني الدرويش ، ٦٢ .
(٣) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ٧٦ .

رب هبني لبلادى عودة وليكن للغير في الاخرى ثوابي (١)

غير ان الهجرة طالت وضعف الخيط الذى يربط الشاعر ووطنه وقلّ الامل في العودة ، فاشتد الحنين ، ولكنه حنين يائس يفيض بالمرارة والاسى اكثر مما يوحيه من الامل والرجاء . ولذلك يعصف الالم بهذا المهاجر ويتراءى له الموت ، ولكنه يعلل نفسه بالعودة ، فقد يرجع اليه يوما ولو جثة هامدة : وليس في وسع المرء الا ان يلمس مدى الالم العميق الذى يحز في نفس الشاعر وهو يهذى بهذى الصرخة الخافتة التي اشبهت حشرجة الموت :

عد بي الى حمص ولو حشو الكفن
واهتف اتيت بعاثر منكود

×××

واجعل ضريحي من حجار سود (٢)

غير ان الشاعر لا يستطيع ان يعيش طويلا على الحنين بعد ان تيقن بان ذلك لن يستطيع ان يبلغه امانيه ويريه الوطن الذى يصبو اليه . فان الحنين مهما اشتد وكان صادقا ، لا يعدو كونه عاطفة سلبية قاصرة تنبع من التفس وترجع الى حيث تنبع . مثل هذا الحنين المحصور في الوطن والى الاهل ، لا يستطيع ان يشبع تلك العاطفة الفياضة التي تضجّ في داخل النفس ، والتي لم تلبث ان انطلقت من الحنين حتى شملت الانسانية جمعاء . ومن هنا كان مبعث تلك الصبغة الانسانية التي اصطبغ بها الشعر المهجرى فجاء اشبه بصلاة تتلى من اجل العالم اجمع لا من اجل الذات الفردية :

واجعل اللهم قلبي
واحة تسقي القريب
والغريب
ماؤها الايمان اما غرسها

---

(١) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ٧٦ .
(٢) نسيب عريضه ، ع . س . ، ١١٠ .

فالرجا والحب والصبر الطويـــــــــل (١)

لقد اصبح الشاعر ينظر الى الحياة العامة فيرى الشرور والاثام ويرى اضطهاد الفرد من قبل الجماعة واستعباد الروح من قبل المادة ، فثار على تلك المدنية الزائفة كما ثـار عليها الرومنتيكيون من قبل . ان الشاعر المهجرى الذى اضناه الحنين اخذ ينظر الـى الآخرين من خلال ذاته ، فكانت نفسه تفيض بالالم فتصبغ العالم اجمع بتلك الصبغة الحزينة التشاؤمية . ولم يشعر ذلك الشاعر انه يبالغ في تجسيد مأساته الذاتية ويعممها علـى الانسانية جمعاء ، بل راح يدعو الى التآخي والى المحبة التي تسع الجميع وتؤلف بين الافراد . ولا غرو في ذلك وقد زاده الاغتراب حساسية شديدة سجّل بواسطتها مشاهد مؤلمة في شعره ، فلم تكن حساسية منطوية على ذاتها ، فقد شملت الجميع وجعلت منه واعظا يعظ عابر السبيل ويبشر بالمحبة :

تلك هي حكايتي يا عابر السبيـــــــــل
فاضرع معي كيما تكون المحبة قائدة لملوكك
مثلما هي قائدة لملوكـــــــــــــي (٢)

وما اصدق المحبة واجلّها في النفس اذا صدرت عن قلب يحفظ الود ويصون العهود ويقدس الذكرى . ان القلب الذى اصبح هيكلا للحب لا يستطيع الا ان يرى الخير عند الآخرين كما يشعر به ، فالمحبة تعمر القلب بالرجاء وتطبع النفس بطابع خيّر ترى من خلاله الحياة والخير متلازمين . فانعدام الخير من الانسان هو انعدام ذلك القبس الروحي الذى اودعه الله في القلوب ، وهو بالتالي انعدام للذات الانسانية التـي يصبح المرء بدونها مادة عاجزة :

لئن حجب الغمام الشمس عنا فلم يطمس ضياء الله فينا

××××××

وجدت المرء حب الخير فيـه فان يفقده صار المرء طينا (٣)

---

(١) ميخائيل نعيمه ، ع . س . ، ٣٦ .

(٢) م . ن . ، ١٢٤ .

(٣) ايليا ابو ماضي ، الخمائل ، ١٢٤ .

ولكن هل تستطيع تلك العاطفة الانسانية التي قلما وجدت لها صدى في نفوس الآخرين ان تطيّب نفس الشاعر وتمنحه الاكتفاء والاطمئنان ؟ لقد تحقق الشاعر من عدم جدوى تلك العاطفة ، فكما ان الحنين لم يستطع ان يبلغه امانيه ، كذلك لم تستطع تلك العاطفة الانسانية ان تمنحه النشوة في الحب الذى افتقده في المجتمع . ان الحب الايجابي هو الذى يقوم على الاخذ والعطاء بين ذات واخرى . لقد ادرك الشاعر الذى احب الانسان ان الحب لا يزال يعوزه ، ذلك لانه شعر ان المجتمع الذى رذله لا يمكن ان يمده بالحب والمشاركة الوجدانية . لذلك لم يعد امامه سوى نفسه هو ، فالتفت الى ذاته ، الى العاطفة الشخصية الخاصة التي تبلورت في الحب . وهنا تسوقنا هذه الالتفافة الذاتية في الحب من العواطف الجماعية المشاعة ، الى العواطف الفردية الخالصة التي تعيش في قلب الشاعر ومن اجله . فهو ان تحدث عنها فلنفسه بعيدا عن الاعين . انها حكاية قلبه التي ظل يرددها كلما شكاه الفؤاد فراغ الايام وسهد الليالي وظلم المجتمع والحياة . لقد غدا الحب ضرورة في شرعة المهجريين انه سر الوجود وهبة الحياة ، انه " للمرء كالميلاد حيث :

لا تدرك الاكباد سر وجودها حتى يجول الحب في الاكباد (١)

والحب لا يخضع لاحكام ، انه غريزة فطرية في الانسان لا يستطيع ان يتخلى عنها حتى في اشد حالات يأسه . وفشله في الحب لا يعني انتهاء الحب وانقطاعه ، بل هو صورة اخرى للحب يغدو بها الشاعر الشادى محبا نائحا يلذ له النواح كما يلذ له النشيد :

انا النائح الشادى انا مرح الهوى انا الشارد الهادى انا اية الدهر (٢)

ان الشعور بضرورة الحب واهميته في تعزيز كيان الشاعر والتعويض عما فاته والتسرى عنه ، ادّى الى انطباع صورة للحب في مخيلته فاصبح يرى في المحبوبة صورة لذاته ، بل هو يحب ذاته في من يعشق ، لهذا لم يعدم الحب حتى حين فقده وحين انعدام المحبوبة في حياة الشاعر :

---

(١) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ٨٢ .

(٢) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٤١ .

يعشق المرء ذاته في سواه ويحب الانسان في الاكوان

×××

نحن اهل الخيال اسعد خلق الله حتى في حالة الحرمان (١)

وقد بلغ من حلولية الحب في ذات الشاعر ان اعتقد ان الحب عاش في ذاته قبل ان تخلق المحبوبة ، انها تعيش في كيانه قبل ان ترى الحياة . ولعل هذا الاعتقاد هو نتيجة لتلك العلاقة الروحية التي يشعر بها المحب تجاه من يحب :

انا المهد الذى ضما كيانك قبلما تما (٢)

وغالبا ما يؤدى انطباع الحب في ذات المرء الى التمسك الشديد وعدم التخلي عن الحب حيث يصبح مع الزمن ذكرى حلوة للحب تسمو على الحب ذاته ، ففي الذكرى يعيش على غرامه الوهمي الذى يتجسد في قلبه وفي شعوره تجسدا تصبح معه تجربة الحب الخيالية تجربة يقينية عالمها الفؤاد وقوامها الاذكار :

خلت اني اذا بعدت سأنسا ها ويطوى الزمان هواها

×××

فاذا الحب كالفضاء وقلبي طائر في الفضاء ضل وتاها

انا في عالم قصي سحيق لا اراها لكن روحي تراها (٣)

ولذلك كانت هذه الذكريات محببة لدى الشاعر ، انها قطعة من ذاته تعيش في وجدانه فتجعله يشعر بانه " اغنى الناس بالتذكار " (٤) وتعبر به هذه الذكرى الى الماضي فيعيشه بمشاعره وعواطفه وكأن اصابع الشيخوخة الباردة لم تلامس قلبه ولم يستأثر المشيب برأسه . انه يشعر بالكبر وانقضاء الشباب ، لكن قلبه يأبى الا ان يظل شابا يزخر بالعاطفة ويتعاطى الحب :

ان شاب منك المفرقان فما اظن القلب شاب

ما زال يخفق بالهوى ويفيض بالسحر العجاب (٥)

---

(١) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ٤٩ .
(٢) ميخائيل نعيمه ، ع .س. ، ٩٣ .
(٣) ايليا ابو ماضي ، الخمائل ، ٢٥ .
(٤) رشيد ايوب ، هي الدنيا ، ١٥١ .
(٥) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ١٥٣ .

وتلح الذكرى على الشاعر فتمزج حاضره بماضيه ثم لا يلبث ان يخلص للماضي ويعيشها تجربة جديدة في الحب ، فان الدهر الذى ينتزع من المرء شبابه ومحبوبته ، يترك في نفسه اثرا تحيله الايام الى ذكريات ترف في عالم الشاعر فلا يهجع القلب وان هجع الشباب :

اذا كان مني استراح الهوى
فلا تحسبي القلب منه استراح
وحولي صفوف من الذكريات
كسرب الطيور خلطن الصياح (١)

ونرجع بالذكرى في الحب الى تعاطي الحب نفسه حيث نعيش مع التجربة نفسها قبل ان يحيلها الزمن ذكرى ثاوية في قلب الشاعر . وهنا تبرز لنا صورة اخرى الى جانب الحب جعلت من نفسها اطارا جميلا قلما فارقه . انها صورة الطبيعة التي غالبا ما اتخذها المحب الرومنتيكي اطارا يضم تجربته في الحب . ولقد تحدثنا في البحث عن الطبيعة عن علاقتها الوثيقة بتجارب الشاعر لا سيما تجربته في الحب ، فلا ضرورة لتكرارها . غير ان هناك ميزة اخرى للحب الرومنتيكي كما ظهر في الشعر المهجرى ، تضطرنا الى ربط الطبيعة بالحب وذلك لما للطبيعة من تأثير في صبغه بتلك الصبغة . اما هذه الميزة فهي ذلك الاتجاه الروحي الذى تميز به هذا النوع من الحب . لقد كانت تلك النفوس موزعة بين حبها للمحبوبة وبين حبها للطبيعة ، الاول يجذبها الى ذاتها فتسرف في عواطفها وتنساق وراء احاسيسها ، وهذه تسمو بها الى العلاء فيغدو حبها حبا نزيها ساميا يترفع عن المادة ويتعالى عن الجسد . لقد حلّ الشاعر في الطبيعة فكانت تتراءى له من خلال ما يعتمل في نفسه ، فكان من نتيجة ذلك ان اعتقد الشاعر بوحدة الوجود التي تكمن خلف المظاهر . لذلك تغلب الجوهر على المظهر العرضي فكانت الطبيعة تمده بالجمال المعنوى الذى ادركه في حقيقة الاشياء وجوهرها . ومن هنا ربطت الطبيعة بين الحب والجوهر ، فان جمالها يسمو

---

(١) رشيد ايوب ، هي الدنيا ، ٨٢ .

بالنفس، فتهفو الى الجمال السامي الذى لا تشوبه المادة . لذلك مال الحب عند المهجريين الى الروحانية والمثالية والترفع عن المادة حتى غدت الحبيبة شقيقة الروح :

"احبك حبا روحيا . وروحك لا تزال رفيقتي ". (١) لم يعد الحب ماديا في عرف هؤلاء ، بل هو الحب الذى يعيش على الخيال فيعيش لذاته المجردة اكثر مما يعيش للواقع . وكأنما يشعر هؤلاء بتلك الميزة الروحية في الحب فيميزون بين حبهم الروحي وحب الآخرين الذى يهتم بالمظاهر دون ان ينفذ الى صميم التجربة :

فان لقيت هائما كلفا في جوعه شبع في ورده القدر
والناس قالوا هو المجنون ماذا عسى يبغي من الحب او يرجو فيصطبر
افي هوى تلك يستدعي محاجره وليس في تلك ما يحلو ويعتبر
فقل هم البهم ماتوا قبلما ولدوا انى دروا كنه ما يحيى وما اختبروا (٢)

وهكذا تسامى هذا الحب فلم يعد يهيم في جمال ارضي ، بل في خيال "قد لاح للروح في السماء ". (٣) وهذه النزعة الصوفية في الحب اتسمت بميزة الطهر التي يقدسها الشاعر ويضن بها ان تسف الى حضيض المادة ، فهو وان يهفو للجمال يظل يحن اليه من بعيد كالفراشة حول النور فاذا ما اقتربت منه ماتت كما يموت الحب في نفس الشاعر ، اذا ما استحال حبا ماديا زائلا .

والحب ان قادت الاجسام موكبه الى فراش من اللذات ينتحر (٤)

ان لذة الحب تكمن في عدم تحقيقه ، فهو قائم طالما بقيت هناك عراقيل وصعوبات تعترض سبيل المحب . انه في نظرة تصاب الى المحبوبة ونشوة مبعثها الترقب والاشتياق، وهو فرحة باللقاء لا تتم فهو كالخمرة توحي لناظرها بالنشوة دون ان يسكر بها :

---

(١) امين الريحاني ، ع .س. ، ٧٨ .
(٢) جبران خليل جبران ، ع .س. ، ٢٣ .
(٣) نسيب عريضه ، ع .س. ، ٢١٩ .
(٤) جبران خليل جبران ، ع .س. ، ٢٢ .

والحب في الروح لا في الجسم نطلبه كالخمر للوحي لا للسكر ينعصر (١)

تسوقنا هذه الظاهرة الروحية في الحب الى حقيقة لا بد من ذكرها . فمن الواضح ان مثالية الحب وروحانيته لا يمكن ان تنبع من عالم مادى ، انها من عالم الهي يسمو عن المادة ، مثل هذا الاعتقاد هو الذى جعل الشاعر يؤمن بقدسية ذلك الحب . ولذلك اتسم بتلك المسحة القدسية التي اضفاها الشاعر على حبه الموصول بالله ، فيه اهتدى الى ذاته بعد ان اخلص لنفسه وصدق في حبه ، الذى وجد فيه ضالته بعد ان نشد السلوى والعزاء :

ان نفسا لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها

××××

انا بالحب قد وصلت الى نفسي وبالحب قد عرفت الله (٢)

ولا ندرى هل الحب هو الذى وصل الشاعر بالله كما يدعي ، ام ان الشاعر هو الذى تسامى في حبه فقرنه بالذات الالهية . ومهما يكن فان الحقيقة التي لا شك فيها على ما يبدو ، هي ان الشاعر آمن اشد الايمان بقدسية الحب فظل ينسبه الى الله مستمدا من ذلك الايمان ، العزم الاكيد على الاخلاص في حبه . ولعل ذلك النزوع الى تقديس الحب هو نتيجة لفكرة تقليدية قديمة تدعو الى رذل العاطفة بزعم انها تقود الى الشر . وهذه الفكرة هي من بقايا العقيدة الكلاسيكية الراسخة في لا وعي الشاعر والتي حاول ان يقضي عليها على غير علم بها . ومن هنا كان هذا التشبث الشديد بفكرة القداسة لدى معظم شعراء الرومنتيكية الذين قدسوا الحب :

اراد الله ان نعشق لما اوجدا الحسنا
والقى الحب في قلبك اذ القاه في قلبي
مشيئته ... وما كانت مشيئته بلا معنى
فان احببت ما ذنبك او احببت ما ذنبي (٣)

---

(١) جبران خليل جبران ، ع . س . ، ٢٤ .

(٢) ايليا ابو ماضي ، الخمائل ، ٢٥ .

(٣) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ١٨ .

اما المحبة فكانت تتراءى لهؤلاء في هالة قدسية حيث تغدو وكأنها ملاك تتراءى صورته في عالم الطبيعة التي تصل الشاعر بهذا الطيف الملائكي الماثل في ضميره :

الا تذكرين شط الغـديـــــر
على صخرة قد جلسنا هنـــاك
ولما انحنيت لصوب الغديـــــر
لمحتك في الماء مثل المـــــلاك (١)

وقد يحلو للشاعر ان يتلو على سمع حبيبته الحانا تشعّ فيها القداسة والطهر وكأنه يريد ان يحلّها في ذلك العالم الذى خلقه من أجلها . فكانت تبدو تلك الالحان اشبه باعترافات لفضائل المحبة وصفاتها وما تحدثه في نفس الشاعر الذى يظل يتعبد لتلك المحبوبـــة الوهمية :

تعود الى الجسم روح الحياة
اذا همست شفتاك الصـــلاة
وصوتك للنفس هادى النجاه
ولمس يديك كلمس الالـــــه (٢)

هذه الصفات التي اضفاها الشاعر على حبه فجاء اشبه بتجربة شعورية روحية قدسية اكثر من كونه عاطفة حب بشرية مادية ، جعلت من نفسها حاجزا بين المحب وبين المحبوبة ، ومن هنا كان عذاب ذلك المحب . فلا يبدو لنا ذلك الحب ، هينا معطاء يسكب السكينـة في القلب ، والهناء في الروح ، بل انه حب الالم والشقاء والمعاناة . انه عواطف شتى من الوجد والبراح والهيام الذى يصهر النفس ويسقم الجسد ويضني الفؤاد . لقد اخلـــص الشاعر الرومنتيكي في حبه وان كان غالبا حبا خياليا بلغ من شدة الشعور وعمق المعاناة ما جعله يبدو لذلك المحب يقينا يمدّه بالالم والتبريح . وقد لا نعدو الصواب اذا قلنا ان حـــب الشـــاعر للالم هو الذى جعله يتمثل صنوف العذاب الـــــذى

---

(١) رشيد ايوب ، هي الدنيا ، ٦٥ .

(٢) نسيب عريضه ، ع . س . ، ٧٩ .

استعذبته روحه اليائسة ، كما لذ له ان يعاني في سبيل حبه معاناة تليق بعمق تلك الاحاسيس.

انا لم اكن في حياتي سوى
محب يهيم بدنيا الشقاء (١)

ويذكرنا هذا الالم وهذا الحب العاقر الذى يتغنى بالشقاء ، بالشعراء العذريين في حبهم العنيف الذى براه الالم والوجد حدّ الجنون ، فكانوا رومنتيكيين قبل ان تنبثق الرومنتيكية في الادب . انها دنيا الغرام التي طال حديث الرومنتيكيين عنها وتغنيهم بها بعد ان ملأوها شجوا يشبه الانين . لقد فتن الشاعر المهجرى بها حتى اعتقد ، كما هي عادة المحبين ، ان القلوب تهفو لشدوها " وتهيم في اناتها ."(٢) غير ان ذلك الالم الذى تغنى به المحب ، لا يلبث ان يعصف بكيانه بعد ان يذيبه الوجد ، ولكنه يعمد الى المداواة من الالم بالاستزادة منه :

كم ليلة طاش قلبي من تململه
فرحت انعشه من حر انفاسي
يقول لي وسهام الدهر تصرعه
الله ما اعذب الشكوى واحلاها .(٣)

الا ان هؤلاء المحبين ، اسرفوا في اذكاء تلك العواطف السلبية في قلوبهم وكأنهم فطروا على حب الالم ، ولا بأس في ذلك طالما ان الالم هو وسيلة لتطهير النفوس واثارة الشعور وايقاظ الاحاسيس الكامنة في لاوعى الانسان . على ان الشكوى وافتراض الالم ، هما وسيلتان سلبيتان لجلب السعادة الى النفس التي تغنت بالعذاب وطربت لاحزانها :

---

(١) رشيد ايوب ، هي الدنيا ، ٨٥ .
(٢) م . ن . ، ١٠٥ .
(٣) م . ن . ، ١٤١ .

انا من قوم اذا حزنوا وجدوا في حزنهم طربا (١)

وهكذا شرب هؤلاء المحبون نخب ذلك الحب في كؤوس الالم ممزوجة بعصارة قلوبهم الدامية التي لذ لهم ان تنزف على اشواك زرعتها ايديهم :

الا شعشعي يا كؤوس
فما للرزايا نصيـــب
وزدني شجى يا غـرام (٢)

لقد مر معنا ان الحب الرومنتيكي ، غالبا ما يكون ذاتيا من صنع خيال الشاعر . ولذلك ارتبط ذلك الحب باحلام الشاعر ورؤاه ارتباطا قويا تجسدت فيه العاطفة عبر الخيال والرؤيا . تلك الاخيلة والاحلام التي غلبت على الشعر الرومنتيكي ، لعبت دورا كبيرا في حياة الشاعر المهجرى الذى امّ عالم الرؤى وحلق باجنحة الخيال في رياض الشعر والحب . ولا تبلغ هذه الرؤى عند الشاعر المهجرى من العمق والحلولية ما بلغته عند بعض رومنتيكيي الغرب ، ولكنها لم تعدم كونها عالما تاق الشاعر الى عبوره فدخله وان لم يوغل فيه . لقد كانت الاحلام والرؤى ملجأ للشاعر يهرع اليه كلما شعر بحقارة الواقع ولؤم المجتمع وظلم المحب ، حيث اراد ان يحقق بخياله ما عجز عن تحقيقه بالواقع . ان النفس التي ابتدعت الالم ، حاولت ان تنفس عن ذاتها فجنحت بصاحبها الى ذلك العالم الجديد وهي تنشد السلوان والعزاء والمتعة . ولذلك كانت تلك الاخيلة والرؤى ضرورة قصوى في حياة الشاعر ، لا بد لنا من التحدث عنها في حديثنا عن العاطفة لانها ذات صلة وثيقة بها .

لما عجز الشاعر عن نيل الحب الذى ظل يتراءى له في عالم غريب بعيد ، مال الى عرائس الخيال فحملته الى رياض وهمية يشاهد بها المحبوبة وينعم بالحب :

اغنّي فتأتي بنات الخيال

---

(١) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ١٦٠

(٢) رشيد ايوب ، اغاني الدرويش ، ١٠٤ .

ويرقصن حولي بضوء القمـــــر
انا لست وحدى في موضعـــي
فان لاح طيف فلا تجزعـــــي
فهذا خيالك امسى معـــــي (١)

واذا كان الخيال هو مطية الشاعر في النهار ، فان الاحلام مطاياه في الليل حيث تأخذه الى ديار الحبيبة فيسعد لحظات قليلة ، يفيق بعدها ليقاسي من جديد الالم والحرمان فيتمنى ، كما تمنى روسو من قبل ، الا يزول ذلك الحلم :

حتى اذا بان عن عيني موكبها
وعاد ليلي الى الاشجان والارق
افقت من حلم واها لعودتـــه
يا ليت عمرى انقضى ولم افـــق (٢)

ان عالم الواقع متقلب لا يبقى على حال وأمله يدوم اكثر من سروره ، فاذا ما هفت شمس السعادة فيه برهة من الوقت ، سرعان ما تغطيها سحب الكدر واليأس والشقاء . وقد كان الشاعر هو اول من يشعر بهذه التقلبات ويتأثر بها ، لذلك انكر الواقع ورأى في عالم الرؤى مصدرا للسعادة الدائمة التي تتاح له كلما هفت نفسه الى ينابيعها ، وهنا يكمن سر انجذاب الشاعر الى تلك الرؤى :

ولمحت احلام الشباب مواكبا تترى امامي والهوى حاديها
سر السعادة في الرؤى ان الرؤى لا كف تسترها ولا تمحوهـا (٣)

لذلك انجذب الشاعر الى عالم الرؤى واستسلم لوعودها ، وربما ادّى به ذلك الاستسلام الى نسيان محبوبته والالتهاء عنها بها في عالم الرؤى التي تمنحه النشوة المنشودة :

---

(١) رشيد ايوب ، هي الدنيا ، ٨١ .
(٢) م . ن . ، ١١٦ .
(٣) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ٣٩ .

قد استسلمت مهجتي للوعـــود فظلت بخدر الروى لن تعود
وفاتتك في حبها والعهـــــد فهل نلتقي يا ترى بالخلود ؟ (١)

على اننا نشعر ان طريق الشاعر الى ذلك العالم الوردى الذى يحتضن فيه رؤاه واحلامه ، هي طريق الوعي والارادة ، حيث يحاول ان يحلّ نفسه في ذلك العالم بفعل الارادة الواعية لذاتها وفي هذا يقول الشاعر :

نؤم خدر الروى ونحظى بما حرمناه في الوجود (٢)

وقد وقف ايليا ابو ماضي عالمه المقفر وواقعه المجدب ، بالرياض الضاحكة عندما هبت عليه نسائم الاحلام ، فعبّر عن تلك الارادة الواعية في اختلاق السعادة بقوله :

اذا انا لم اجد حقلا مريعـــا خلقت الحقل في روحي وذهني
فكادت تملأ الاثمار كفـــــي ويعبق بالشذى الفواح ردنـــي (٣)

وليست الروى هي عالم الوعود البراقة فقط ، بل هي ايضا عالم النسيان الذى يلامس قلب الشاعر فيسكب فيه السلوى والعزاء بعد ان تدهمه الشجون ويبرح به الوجد :

شددت اليها الرحـــــال فساد بقلبي السكون
وتاه بنفسي الخيـــــال الى حيث القى السلام (٤)

هناك ينشد العزلة والوحدة التي تملأ قلبه بالانس ونفسه بالرجاء ، حيث يعللها بالآمال بعيدا عن الواقع الذى كرهه وشعر بتفاهته وحقارته . في هذا العالم الجديد ، يجدد الولاء ويصل ما انقطع من عهود الغرام باثا النجوى مستعذبا الالم . ويعود الشاعر من جولته الغرامية في عالم الروى والاحلام ، ويواجه الواقع الذى تهرب منه وقد دبّت في

---

(١) نسيب عريضه ، ع . س . ، ٨١ .
(٢) م . ن . ، ٨٧ .
(٣) ايليا ابو ماضي ، الخمائل ، ٢٨ .
(٤) رشيد ايوب ، اغاني الدرويش ، ١٠٢ .

رأسه الشيخوخة وغادرت قلبه عرائس الخيال والحب رغم محاولته للتمسك بها عن طريق الاحلام التي سرعان ما تزول • وهنا تتضاعف شجونه وقد عاد خالي الوفاض الا من هواجسه وشكوكه والمه فيحس بشيء يشبه الموت في اعماقه ، انه الواقع الذى يسلبه حتى متعة الاحلام والرؤى :

كلما استولدت نفسي امـــلا ... مدت لدنيا له كف اغتصابي

افلتت مني حلاوات الرؤى ... عندما افلت من كفي شبابي

بت لا الالهام باب مشروع ... ولا الاحلام تمشي في ركابي

اشتهي الخمر وكأسي في يدى ... واحس الروح تعرى في ثيابي (١)

من هذه الجولة القصيرة في رياض الحب ومكامن الذكرى التي صورها الشاعر المهجرى الشمالي ، نخرج وقد طافت بعيوننا اطياف لمحبين اخلصوا في الحب وعاشوا في عالم الالم الدفين الذى نفس عن ذاته بابيات من الشعر • ان الخلال التي تسوقنا الى الاعتقاد برومنتيكية ذلك الحب هي تلك المسحة الروحية التي طهرها الالم وغشاها الحزن • ثم ذلك الحنين الدائم الى الحبيبة البعيدة ، وكأن الشاعر لذّ له ان يصطنع الحواجز حتى يظل حبه في سماء الروح بعيدا عن المادة • وقد اقترنت صورة ذلك الحب بالطبيعة التي ترعرع الحب الرومنتيكي في احضانها فاكسبته غلالة قدسية بادية النقاء • وقد يكون هذا الحب مظهرا من مظاهر الحساسية بالذات التي عبّرت عن ذاتها بالانسياق في تيار العواطف الشخصية حدّ الاسراف • وميزة اخرى تساعد على اكتمال الصورة الرومنتيكية للحب في الشعـــر المهجرى الشمالي ، الا وهي الاخيلة والاحلام والرؤى التي تحدث عنها هؤلاء بصدق واخلاص لانهم احسوا بالتجربة وعاشوا على انفعالاتهم واحاسيسهم ، وان بدا حديثهم عنها من نتاج الوعي والارادة •

---

(١) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ٧٥ •

شعر الموت

منذ بدء الخليقة والموت هو النهاية الحتمية التي تنتهي بها حياة الانسان ، فالموت والحياة صنوان ، كلاهما باق ببقاء الاخر . امام هذه الحقيقة الفاجعة وقف الرومنتيكيون بامزجتهم المريضة وشدّة حساسيتهم ، وقفة اختلفت عمن سبقهم من حيث نظرتهم الى الموت وانفعالهم به . لقد كثر ذكر الموت في الشعر المهجري كما كثر في الشعر الرومنتيكي عامة . فكان الشاعر المهجري "رومنتيكيا" في نظرته الى الموت الذي احبه وتغنى به غالبا ، تبعا لنفسيته التي تستعذب الالم وتميل الى ما من شأنه ان يثير الشجون والحزن والاسى في النفس . ولما كان الموت هو اقوى على اثارة الاحاسيس المريرة واقدر على جلب الالم والتعاسة ، فقد لاقى هوى في تلك النفوس المعذبة التي آلمها الواقع واضناها الغرام وفاتتها الاحلام والرؤى . ان الموت عذب جميل وهو امنية الشاعر الذي دفعته الحياة والمصير الى المعاناة واستعذاب الموت :

دقة الناقوس عندي كل انغام الطرب
فاضربوه عند لحدي يوم تفريج الكرب — بالحمام (١)

ولقد تغنى الشاعر بالموت وحاول على ضوء انفعالاته الشخصية ان يعطيه صورة جميلة تغاير اشد المغايرة ، تلك الصورة التي يوحيها لنا الموت . فلم يعد الموت لدى الشاعر الذي يعانيه معاناة نفسية ، مبعث الاسى والقنوط ، بل هو غبطة واحتفال بالزوال والاضمحلال واللامبالاة :

دعوني أصحابي انام بغبطة فقد سكرت نفسي بخمر المحبة
وهيا انظروا ثم اقرأوا ما تخطه يد الموت تذكارا على صحن جبهتي
ولا تلبسوا بعدي السواد تحسرا ولكن تردّوا بالبياض لفرحتي (٢)

وكثيرا ما تمر لحظات اليأس الشديد بحياة الشاعر ، فيتراءى له الموت عبر احزانه ، فيهفو اليه علّه يضع حدا لحياة القنوط والفشل والالم التي يعيشها الشاعر دون غيره :

---

(١) رشيد ايوب ، اغاني الدرويش ، ١٧٦ .

(٢) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٤٩ .

ناموا ونفسي يقظـــــى
تهذى بذكرى الشموس
ترجو انتهاء اعتقالـــي
لكي نفض الخيـــــام
يا اخت روحي تعالـــي
تلقي اليك الخطـــام (١)

نرى ان شدة احساس الشاعر بوجوده وبالتالي بموته ، دعته الى الاكثار من صور الموت والاحتضار وذكر القبور. تلك الصور الحسية المفزعة هي وسيلة يعمد اليها الشاعر لتجسيد احساســـه بالموت الذى يظل في حدود المعاناة الداخلية حتى يقترن بمثل تلك الصور المادية الخارجية .

ولقد قلت لنفسي وانا بين المقابر
هل رأيت الامن والراحة الا في الحفائر
فاشارت فاذا للدود عبث في المحاجر (٢)

ولا يقتصر ذكر الموت على اقترانه بصور القبح بما فيه من الجماجم والاكفان والقبور ، فان الشاعر الذى احب الموت يعمد الى بث الجمال في تلك الصور فتمتزج بها الرهبة بالتحبب والالم بالغبطة . وهنا يستعين الشاعر ايضا بالطبيعة فتمده بالصور التي تضفي بهجـــة وجمالا على الموت :

باوراق فلّ كفنوني وزنبق وعن جسدى الكتان خلّوا بعزلة (٣)

فهذا المزج بين ما هو فان زائل ممثل في المحتضر ، وبين ما هو حي باق ممثل في الزهور التي توحي باستمرار الحياة ، هو نتيجة لذلك الخوف الدفين من الموت الذى كرهه الشاعر

---

(١) نسيب عريضه ، ع .س. ، ١٥ .
(٢) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ٩٨ .
(٣) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٤٩ .

واراد ان يغطي ذلك الكره بفيض من الحب والاجلال . وقد يعزز هذا الظن ذلك الخوف الذى يبرز من آن لآخر عند ذكر بعض الشعراء للموت ، فنرى الشاعر يهاب الموت ويفزع من القبور التي لا تحوى غير الجماجم والعظام ويقول يا الموتى :

ولا تدفنوني في المدافن حيثما ... زحام يمحي ارتياحي ولذتي
عظام تولاها البلى وجماجـــم ... بقضقضة تنفي سكينة وحدتي
الى غابة السرو احملوني ريانة ... وفي قلبها قبرى احفروه لمنعتي (١)

فليس ذلك الازدحام في المدافن سوى ازدحام الهواجس والرهبة في نفس الشاعر لصورة الموت الحقيقية التي تكمن في اعماقه ، وما تلك القضقضة سوى الوهم والخوف اللذين يلحان علـــى الشاعر كلما طاف الموت بفكره يقينا لا مفر منه . وكأن الشاعر الرومنتيكي في لجوئه الى الموت يحاول ان يهرب من الخوف بالاندفاع الشديد نحو ما يحاول الفرار منه ، حتى اذا ما كاد الموت يصبح حقيقيا لديه ، ناجاه مستعطفا مسترحما وقد عصف به الالم . فالشاعر الذى وصف احتضار ابي نواس وقد بدا " روح تحشرج ضمن جسم "، (٢) انما كان يعبّر عن وجله ورهبته هو من الموت . لقد تمثل له الموت في كل شيء حتى استحال الورى موكبا لا يحوى سوى القبور حيث " الحياة قبور تدور ".(٣)

وتسوقنا هذه الوقفة القصيرة امام الموت في الشعر المهجرى الى الكشف عن حقيقته كما تراءت لهؤلاء الشعراء . فلقد اختلفت حقيقته باختلاف المواقف فلم تكن هناك حقيقة مطلقة ، بل نسبية تخضع لظروف الشاعر وحالته النفسية . فبينما الموت محبب وجميل ، وبينما هـــو انعتاق وحرية ، يصبح عدما وزوالا وفناء . ففي ثنايا الموت يتراءى للشاعر عالم تنطلق فيه روحه من عقالها وتعانق الخلود والابدية التي افتقدها في الحياة ؛

---

(١) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٥١ .
(٢) نسيب عريضه ، ع . س . ، ٤٤ .
(٣) ميخائيل نعيمه ، ع . س . ، ٦٥ .

فها قمة الطود العظيم بلغتها ... وروحي بجو الانعتاق تمشت
وغير اغاني الخلد ما عدت سامعا ... ترافقها روح هناك تغنت (١)

انه حياة جديدة لذلك المتعب الذى قذفت به الحياة بعد ان اوثقته وكبلته باغلال من اليأس والعجز والجهل . ان الواقع هو الذى افزع الشاعر وجعله يلقي بنفسه الى الموت في ساعات اليأس والقنوط ، بعد ان القاها في احضان الرؤى في سويعات الامل .

حيث الحمام يفك اغلالي
ولحقت آمالي فقد سبقت
قدما غروب الشمس آمالي (٢)

لذلك ينفي الشاعر ان يكون الموت حقيقة ، بل وهم يوحي بالزوال والانتهاء ، ويؤكد من خلال واقعه النفسي ، ان الموت امتزاج في الكون ونزوع الى البقاء وعدم التحول ، حيث يستوى القبح والجمال وتنعدم الفروق :

ليس في الغابات موت ... لا ولا فيها القبور
ان هول الموت وهم ... ينثني طي الصدور (٣)

فالموت هو نهاية الانسان الواهم ، اما بالنسبة "للاثيرى فهو البدء والظفر" (٤) لانه بدء الحياة الماورائية التي ظل الشعراء المهجريون يحنون اليها على غرار الرومنتيكيين . عالم الغيب الذى حن اليه هؤلاء ، كان ممثلا في الموت الذى يعبر بالشاعر الى ذلك العالم:

وعندما الموت يدنو ... واللحد يغفر فاه
اغمض عيونك تبصر ... في اللحد مهد الحياة (٥)

---

(١) رشيد ايوب ، اغاني الدرويش ، ٨١ .
(٢) م . ن . ، ٨١ .
(٣) جبران خليل جبران ، ع . س . ، ٢٨
(٤) م . ن . ،
(٥) ميخائيل نعيمه ، ع . س . ، ٩ .

الا ان الشاعر الذى تتنازعه عواطف ومخاوف شتى ، يعود ليبحث عن حقيقة الموت بين تلك الجماجم المتناثرة التي عراها الموت من مظاهر الحياة ، بعد ان ران على القبور صمت فلا عتاب ولا شكوى ولا لهفة او ولوعا .

ها انا المس التراب فلا المس همسا او غبطة او عذابا
وأصيخ الى التراب فلا اسمع شكوى او لهفة او عتابـــا (١)

ذلك الشاعر عجز عن فض اسرار الحياة ، فلجأ الى الموت ورأى فيه كشفا لما غمض من حقائق الوجود ، وما ذلك الا تهربا وعجزا عن سبر اغوار الاشياء والوصول الى الحقائق التي آلمته :

ولا تسألي السر في ذى الحياة
ففي الابدية فصل الخطـــاب (٢)

وكما تسربت اشارات من الطبيعة التي استأثرت بكيان الشاعر الى احاديث الموت ، كذلك امتزجت احيانا هذه الاحاديث ، باحاديث الحب حيث اقترن ذكر المحبوبة بصور الموت . فالشاعر الذى رأى الجمال والنقاء والروحانية في المحبوبة ، لا يلبث ان يتراءى له الموت وراء تلك المعالم المحببة التي احالتها ساعة اليأس والقنوط مظهرا تتجلى به صور الموت المفزعة :

بعينيك نور تراه العيون جميـــل فيضحك منها المنون
لان المنايا تحدق فيـــك بعين الامان التي لا تخون
فتبصر في مقلتيك ترابـــا وتبصر دودا وراء الجفـــون (٣)

هذه هي الحقيقة التي طالما حاول الشاعر الهرب منها ، ولكنها تظل ترسف في اعماق نفسه حتى يشتد به اليأس والقنوط فتطغى على ذاته وتريه الموت في كل شيء وخلف كل مظهر ، فما الكحل الا ستارا "للدود خلف الاثمد" (٤) ومهما يكن من امر ، فان الموت

---

(١) ميخائيل نعيمه ، ع .س. ، ٨٩ .
(٢) رشيد ايوب ، هي الدنيا ، ١١١ .
(٣) ميخائيل نعيمه ، ع .س. ، ٩٦٣ .
(٤) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ٤٩ .

اقلق هؤلاء الشعراء كما اقلق غيرهم ولا يزال عالما يحوطه الكتمان والغموض والرهبة ، وكل ما قيل وما يقال ما هو الا تكهنات مبعثها الشعور لا المعرفة الاكيدة . هل الموت قصاص عادل يطيح بالبشرية الآثمة . ام هو رحمة وغفران وعزاء انه في كلا الحالين جناية تعصف بالبريء والمذنب على حد سواء :

ان يك الموت قصاصـــــا اى ذنب للطهارة
واذا كان ثوابـــــــا اى فضل للدعارة (١)

ونخرج من تساؤلات هؤلاء الشعراء عن الموت ، باعتراف منهم بالعجز والجهل بعد ان فشلوا في تفسير تلك الحقيقة الغامضة التي ستظل علامة استفهام كبيرة تنتهي بها الحياة :

خبّر وحدّث كلنا حائر ذو الجهل منا والاريب الهمام
لايما امر يعيش الـورى لايما امر يموت الانـــــام ؟ (٢)

---

(١) م.ن. ، ٩٨.

(٢) ايليا ابو ماضي ، الخمائل ، ١٢٦ .

شعر القلق والتمرد

ان الشاعر المهجرى الذى بدا "رومنتيكيا" في نظرته الى الطبيعة والى الحياة ، لم يستطع ان يتخلص من تأثير الرومنتيكية حتى في نظرته الى الحياة والى الكون والمصير . فالرومنتيكية ليست اسلوبا بقدر ما هي مزاج يطبع الاديب بما في نفس الاديب من عواطف وانفعالات . لقد اقلقت حقائق الحياة الشاعر المهجرى كما اقلقت غيره من شعراء الرومنتيكية ، الا ان هذا القلق بدأ ايجابيا — بالبحث عن المعرفة — ولكنه انتهى سلبيا حيث اسلم الشاعر نفسه للقنوط واليأس بعد ان فشل في محاولاته .

رفض الشاعر الرومنتيكي العقل لانه عجز عن ادراك الحقائق التي يتوق اليها الانسان ، بينما اعتقد انها لا تتأتى الا عن طريق الشعور فعوّل على البحث عنها بطريقته الخاصة :

فلنترك العقل حيث يبغـــي
فليس للعقل من شعـــور (١)

لقد ايقن الشاعر ان العالم مليء بالاسرار والخفايا التي عجز العقل عن سبر اغوارها ، فالعقل محدود في معالجته الامور وذلك لارتباطه غالبا بالتجربة الحسّية والاقيسة المنطقية التي تعجز عن اختراق حجب الغيب والنفاذ الى الحقائق الغيبية المجردة . العقل يفسر الظواهر ولا يدرك اسبابها الخفيّة ، ذلك ما ادركه الشاعر ، فلجأ الى احاسيسه فامدّته بالامل والرجاء اللذين يتأتيان عن طريق القلب لا العقل . ولعل هذا الاتجاه ناتج عن محاولة هؤلاء لتفسير الظواهر كما يريدون هم ، ولما كان العقل يمتاز بالموضوعية ويتمسك بالواقع ، وكان الشعور هو الوسيلة الوحيدة التي تمكن الانسان من توهم ما يريد وتحقيقه في داخل النفس ، فقد رذل الشاعر العقل واعتمد على الشعور :

---

(١) نسيب عريضه ، ع .س. ، ٥٦ .

فاذا ما راح فكرى عبثـــــا في صحارى الشك يستجلي البقاء
مرّ منهوكا بقلبي فجثـــــا تائبا يمتص من قلبي الرجـــــاء (١)

ولكن هذا الشعور الذى يحدوه الامل والرجاء ، هل يستطيع ان يرشده الى الحقيقة المنشودة . وهل يقنع الشاعر بهذا الامل الخلاب . ان الشعور الذى اعتمده الشاعر الرومنتيكي في بحثه عن الحقيقة ، فشل كما فشل العقل من قبل . ولذلك تسرّب الشك الى النفس التي تأرجحت بين الرجاء واليأس .

حامت على روحي الشكوك كأنها وكأنهن فريسة وصقور
ولقد لجأت الى الرجاء فعقّني اما الخيال فخائب مدحور
يا ليل اين النور ؟ اني تائه مر ينبثق ان ليس عندك نور (٢)

هكذا نرى ان فشل الشعور والحس في كشف الحقائق ، دفع بذلك الشاعر اليائس لان يلجأ الى الليل يستمد منه النور والمعرفة . ولكن هل تستطيع الظلمة ان تري الشاعر ما عجز عن رؤيته في النور ، وهل تستطيع ان تصله بعالم الحقائق . انه يلجأ الى نشدان الحقيقة من الليل بدافع من الالحاح واللجاجة في طلب المعرفة التي خال انها ثاوية في ضمير الليل الذى رمز الى الحقيقة المظلمة في نفسه . الا ان الليل يظل صامتا فلا نور فيه ولا حقيقة تتجلى به للشاعر الذى يتألم لذلك ، فيعمد الى الخمرة ليسكت بها صرخات الالم والشك ، حيث ينسى ذاته ويذهل عن ملابسات النفس المقلقة :

حياة شك وموت شـــك
فلنعمر الشك بالمـــدام (٣)

ان هذه الوقفة العاجزة التي وقفها الشاعر امام حقائق الكون ، زادت نقمته على المجتمع الذى رذله وقبح تقاليده ومظاهره المزيفة . لقد كان هـذا

---

(١) ميخائيل نعيمه ، ع .س. ، ٣٦ .
(٢) ايليا ابو ماضي ، الخمائل ، ١٦ .
(٣) نسيب عريضه ، ع .س. ، ٥٣ .

المجتمع بمثابة سجن قيد الشاعر في احاسيسه وافكاره ، والذى زاد في المه انه لا يستطيع ان يتخلى عنه كلية ، اذ ليس له "عن مذهب الناس غنى ." (١) لقد زاد هذا الموقف السلبي تجاه المجتمع من حساسية الشاعر فعزز الشك في نفسه ودعاه الى تقبيح العلم والعلماء لانهم يوقظون العقول على الحقائق فتتشبث بها وتشقى دون ان تدركها :

ان يكن علم الورى يـ شقيهم يا الهي رد للناس الغباء

××××××

فلقد اكثرت اسباب الاذى عندما اكثرت فينا العلماء (٢)

وكما ان المجتمع بما فيه من نفاق وزيف ودعوة الى العلم زاد في حساسية الشاعر وقلقه وتمرده ، كذلك اسهمت الطبيعة في اذكاء نار الحيرة لديه ، فقد بدت له عالما من الاسرار التي شغف بمعرفتها . ما هي حقيقة المظاهر الطبيعية وما علاقتها بالانسان والنفس؟ لقد وقف الشاعر امام هذه المظاهر يسائلها عن ذاتها وعن ذاته ، فما "هذه النجوم السواطع ." (٣) وما "هذه الاقمار في كبد السماء ." (٤) هل تدرى حقيقة ذاتها ام يغشيها ضباب الجهل قيله ؟ ان هذه النجوم وتلك الاقمار لم تكن مقصورة لذاتها بقدر ما كانت ترمز الى المظاهر الكونية العامة التي حار الانسان في تفسيرها . وليست الجوامد فقط هي مبعث التساؤل والحيرة لدى الشعراء ، بل ايضا الكائنات الحيّة الاخرى التي تجرى عليها سنّه الحياة والموت كما تجرى على الانسان . ان حقيقة الموت التي ظلت تتراءى في مظاهر الزوال في الطبيعة ، كانت مصدر الم وعذاب لهؤلاء الذين المتهم فكرة الفناء والتحول . ان الريش المتناثر حول الاغصان ومنظر العش الخالي ، ما هي الا صورة الموت والزوال والتلاشي . لقد انفعل الشاعر بهذا المشهد الاليم فعبّر عن ذلك الانفعال بصرخة خافتة كانت بمثابة احتجاج على الواقع المصيرى الفاجع الذى لم ينج منه حتى العصافير:

---

(١) رشيد ايوب ، اغاني الدرويش ، ٩٢ .

(٢) ايليا ابو ماضي ، تبر وتراب ، ٩٠ .

(٣) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٤٥ .

(٤) م . ن .

رأيت ريشا على الاغصان منتثرا والعش خال من السكان مهجور
فقلت والنفس ذابت في كآبتها والقلب من خيبة الامال مكسور
الله الله من دنيا اذا ظلمت لم ينج من ظلمها حتى العصافير (١)

الا ان الطبيعة في الحقيقة ، لم تكن سوى ظل لهذا الشاعر الذى احسّ بوجوده ، فرأى انه لفظة لفظتها الحياة صدفة فهي لا تدرك ذاتها قبل ذاك ولا تعرف ما هو مصيرها بعدئذ ، فظلت علامة استفهام كبيرة لا جواب لها على لسان الزمن . لماذا يولد الانسان ، ما هي العدالة في ان يولد مكرها ويموت مرغما بعد ام تغويه الحياة ويتشبّث بها :

انا من انا يا ترى في الوجود ؟ وما هو شأني وما موضعي ؟
انا نغمة وقعتها الحيـــاة لمن قد يعي ولمن لا يعي
سيمشي عليها السكوت فتمسي كأن لم تمر على مسمـــع (٢)

ان مشكلة البداية والنهاية التي ظلت في طي الكتمان والتي دفعت هؤلاء الشعراء المهجريين الى الجدّ في اثرها بحثا عن حقيقتها وكنهها ، هي نفسها التي دعتهم الى تفضيل العدم على الحياة التي يخيم عليها الجهل والغموض . فالجهل هو مجلبة الشقاء لتلك النفوس الهائمة التي تتلاشى احلامها بين لحظة واخرى بعد ان تصير هي حفنة من تراب . لقد حنت الى الجوامد مفضلة اياها على الاحياء ، فهي لا تفرح بالحياة ولا تفجع بالموت :

اكذا نموت وتنقضي احلامنا في لحظة والى التراب نصير ؟
خير اذن منا الاولى لم يولدوا ومن الانام جنادل وصخـور (٣)

---

(١) رشيد ايوب ، هي الدنيا ، ٧٠ .
(٢) ايليا ابو ماضي ، الخمائل ، ١٠٠ .
(٣) م . ن . ١٦ .

وليس الموت والولادة هما فقط محور التساؤل ومبعث الالم لدى شعراء المهجر ، فهناك ايضا قضايا وجودية اخرى استأثرت بفكرهم وشعورهم وزادت اليأس والشقاء لديهم . فهناك مشكلة الارادة والحرية التي ظل الانسان يقدسها ويتوق اليها . يولد الانسان ويموت رغم ارادته ، فهل له ارادة وحرية يمارسها في قطع ذلك الطريق القصير الذى يسيره من المهد الى اللحد ؟ هل هو "حرّ طليق ام اسير في قيود" (١) هل هو قائد نفسه ام انه عبد النواميس التي فرضتها الحياة دون ان يدرك ماهيتها والحكمة من ورائها . هذه الحيرة التي جعلت نفس الشاعر في مد وجزر ، سرعان ما ارتدت دون ان تجد لها جوابا شافيا ، فظلت تساؤلات حائرة لا امل في حلّها :

اسبت ارواح القتام
فارتك ما خلف اللثام
فطمعت فيما لا يرام
يا نفسكم ذا تطمحين (٢)

وتسوقه هذه التساؤلات الحائرة حول الارادة والحرّية الى مشكلة القضاء والقدر التي وجد بها الانسان الحل الاخير لجميع المشكلات ، وذلك لانه عجز عن ايجاد الحلول الشافية التي من شأنها ان تكشف له ذلك العالم الغيبي الذى ظل يصبو اليه . يولف الانسان فيقال هو القدر ، ويتعثر في حياته ويتأرجح بين اليأس والرجاء فيقال هو القضاء ، ثم يموت وكأنه لم يكن فيقال انه المصير . هذه الحلول التي اضطر الانسان الى اختلاقها محاولا الاقتناع بماهيتها والاكتفاء بها ، اثارت هؤلاء الشعراء الذين تساءلوا عن مدى صدقها :

---

(١) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ٨٩ .

(٢) نسيب عريضه ، ع . س . ، ٢٠

اكذا مصيرك للضريـــــح
ولا اعتراض منك يبـــــدو
اكذا النهاية ؟ يا لعقبى
ما لها في الخلق بـــــدّ (١)

هذه الطلاسم التي ظل الشاعر حائرا في حلّها ، عاجزا عن ادراك كنهها ، جعلته بادى القلق كثير التشاؤم والشكوى حتى من وجوده الذى جهله كما جهل الحقائق الكونية الاخرى . ان وجوده لغزا ضافته الحياة الى قاموسها ، يزيد في معمياته وضلاله :

انني جئت وامضي وانا لا اعلـــم
انا لغز ، وذهابي كمجيئي طلسم

×××××

ولقد ابصرت طريقي فمشيـــــت
وسابقى سائرا ان شئت هذا ام ابيت (٢)

هذه هي الحقيقة التي وصل اليها الشاعر وهي حقيقة مؤلمة ظلت تحز في نفسه وتدعوه الى التمرد على هذه المفاهيم التي لم يستطع هضمها والاستسلام لها ، وان ابدى ذلك بين حين وآخر ، فهو يعيش رغم انفه حيث تسيره الاقدار حسب ارادة مجهولة عمياء دون ان يمكنه الاعتراض على حكم القضاء . لقد تألم لذلك وزاده التأمل ألما ومعاناة ، فالتفت الى من حوله ولكنه وجد اناسا مسالمين لا اعتراض لهم على احكام القضاء فتمنى لو استطاع ان يعيش كهؤلاء في استسلام وطمأنينة . ولكن انّى له ذلك وهو يجهل كنه ذاته :

يا لها نفحة ارتنا بصيصا في ظلام البقا فزدنا عماء
نفحة الله اين استقـرت بعد ان عادت الجسوم هباء

---

(١) نسيب عريضه ، ع . س . ، ٣٣ .

(٢) ايليا ابو ماضي ، الجداول ، ١١٢ ، ٨١ .

أالى صدر خالق الكون آبت تحمل الهم والاسى والشقاء ؟
ام طوقتها الاقدار لكن لحين ؟ ام هواء كانت فعادت هواء (١)

لم يكن ذلك التساؤل الملحاح مجرد حب للمعرفة المجردة ولا تضييعا لفراغ الايام . فالشاعر قلما شعر بفراغها ، لقد ملأت ذاته دنياه واغرقتها شتى الاحاسيس والمشاعر فودّ لو عرف كنهها . ان حواسه التي تصله بالعالم وتنقل الى نفسه انطباعاتها المختلفة ، هي مصدر عذابه واضطرابه ، لذلك ودّ لو تخلص من تلك الحواس التي ملأت رأسه بشتى المتناقضات .

بربك افكاري دعيني سابحا
ببحر وجودي ـ دودة بين اسماك
ضريرا ، اصمّا ، ابكما متجلببا
بجهلي وضعفي ، دون علم وادراك (٢)

لم تجدِ الشاعر هذه التساؤلات ولا هذى الاماني ، فعمد الى حلول سلبية وجد بها الحل الاخير لمشكلته الحياتية وان كانت تسوقه الى الهلاك . ان الموت الذى اقلقه كان مبعثا للعزاء ومصدرا للراحة ، فاذا لم يكن للحياة معنى سوى ان تلك الاماني والاحلام مصيرها القبر ، فلمَ لا يرغب في الموت مخلصا ابديا . ونرى مبلغ النقمة والحقد في نفس الشاعر الذى شق عليه ان تؤول امانيه وآماله الى القبر حيث تصبح طعاما لديدانه ، في تلك الدرجة اليائسة التي عبرت عن سخريته بالحياة وسخف العدالة :

صاح شيع الى الضريح منانا
فعسى تشبع المنى الديدانا (٣)

فالشعور بالضياع هو الذى اسلم الشاعر الى تمني الموت الذى هو غاية النفس القانطة

---

(١) ميخائيل نعيمه ، ع . س . ، ٩٠ ـ ٩١ .
(٢) م . ن . ، ٤٧ .
(٣) نسيب عريضه ، ع . ص . ، ٥١ .

بعد ان اضاعت سعادتها بجهلها ذاتها . ان الحس هو الذى دفع الانسان الى الجس والاختيار والتجربة فكان سببا في تساؤله ومبعثا لشقائه وتعاسته ، ذلك لانه سبيل الادراك والوعي الذى لا يستطيع ان يتخطى حدود المادة والمظاهر حيث تكمن الحقائق المجردة المطلقة . والشاعر الذى عاش باحاسيسه ولذاته ادرك ان الوعي ممثلا في الحياة هو باعث الالم في نفسه فتمنى الموت بقوله :

الحس مجلبة الكآبة والاسـى قم ننطلق من عالم الاحساس (١)

على ان الشاعر الذى فقد ثقته في الحياة والكون ، حول نظره الى السماء فتراءى له بصيص من الامل والرجاء . لقد عجز الانسان في ادراك ذاته فهل تعجز الاديان عن ذلك ؟ ان الله هو المسؤول الاول عن هذه الذات وتلك الحياة العاثرة والالغاز المبهمة ، انه هو الذى اتخذ من القضاء والقدر ستارا يحجب به الحقيقة عن عبيده ومخلوقاته . الى هذا الخالق الاعظم توجه الشاعر عله يجد في السماء حلا لمشكلته ومزيلا لهواجسه . ولقد نظر الى السماء يحدوه الامل والتفاؤل والايمان بقدرة الخالق وعلمه :

الا كل شيء في الوجود بعلمه والسنة الاكوان تنطق باسمه (٢)

على هذا الايمان يبني الشاعر امله من جديد ، وتعود تساؤلاته تدفعه الى طلب المعرفة التي اعتقد انها عند الله عالم الغيب ومعاين المطلق والابدية .

الله في نفسي ونجواها عند الدرارى صار مأواها
يا ويح قلبي عندما هجرت تركت له الدنيا وبلواها

××××

لا تلمها فهي قد طوت السبع الطباق لتسأل اللـه (٣)

وهنا ينتقل تساؤله من الصعيد الارضي الى الصعيد الالهي ، من الطبيعة الى عالم الغيب . اذا كان الله هو الذى يسير الانسان فلماذا يعاقب ذلك المخلوق بما

---

(١) ايليا ابو ماضي ، الخمائل ، ٤٣ .
(٢) رشيد ايوب ، الايوبيات ، ٤٧ .
(٣) رشيد ايوب ، هي الدنيا ، ١٤٦

قدر الله له من الضلال والخطيئة . ان فكرة الخطيئة وفكرة القدر والعقاب هما اللتان جعلتا الشاعر يعزو كل شيء الى الله . حرام لذلك الانسان ان يتعذب من اجل عمل فرض عليه .

اخالقي رحمـــاك بما برت يداكـــا
ان لم اكن صداكا فصوت من انـــا ؟
ربي اما ترانـــي اساق كالحملان
ربي ، اما كفانـــي عماى والونـــى ؟ (١)

بهذه الصلاة الحزينة التي بثها الشاعر الله عتابا واسترحاما ، ظل ينفث عن صدره الهموم فيزيح عن كاهله عبئا لا مشيئة له بحمله ولا قدرة له على انتزاعه . ان الله هو الذى مهد الطريق امامه واعطاه الامكانيات التي تساعده على شق ذلك الطريق العسر ، ولكنها امكانيات ضئيلة لا طاقة لها على اسعافه وارشاده . بل ان ذلك النور الضئيل الذى وُهِبَه الانسان هو الذى اراه وعورة الطريق وصعوبة الاختيار فتعثر من حيث حاول الاهتداء .

الهي اعرّني والليل داج
سراجا والطريق بها اعوجاج
وارسلت الرياح الهوج تترى
فما ذنبي اذا انطفأ السراج (٢)

هذه هي المرحلة القلقة اليائسة التي مرّ بها الشاعر في حياته فاسلمته للقلق والتمرد ثم الاستسلام ، لقد استعرض حياته فلم يجد سوى ضالّ تسوقه الايام الى مصير مظلم كالظلمة التي انحدر منها .

---

(١) ميخائيل نعيمه ، ع . س . ، ٥٠

(٢) رشيد ايوب ، اغاني الدرويش ، ١٧٢ .

تسوقني الثوانـــي في موكب الزمان
ولست ادرى ثانـــي في معرض الورى
فلا الفضا يغنيني ولا الرجا يهديني
ولا السما تعطيني نورا لكي ارى (١)

هذه هي نهاية الجولة التي طافها الشاعر في عالم الحقائق الخفّية ،عالم القلق والحيرة الذى عاش فيه حائرالنفس مكبوت الثورة موزع الفؤاد بين ظواهره ومغيباته ،الاولى تمده باليأس والثانية بالرجاء حتى اعيته الحيل والظنون . لقد انقطعت الامال التي وصلته بالسماء بعد ان سدّت امامه ابواب المعرفة في الارض ،فلم يبق لديه سوى حفنة من الذكريات التي تقد حكاية عمره القصير المفعم بالاحاسيس وشتى الانفعالات :

هي تذكارات شاعر
عاش في الدنيا شريد
وقضى في الامر حائر
يقصد الضوء البعيد
في الظلام (٢)

وهكذا نرى ان الحقيقة التي اقلقت الشاعر ،ظلت في طي الكتمان ،وان العالم الغيبي الذى ظل ينزع اليه علّه يجد فيه تفسيرا لمعميات الوجود ،بقي ايضا في ضمير الغيب. لقد ظلت ذاته مجالا للصراع اليائس الذى بث القلق والتشاؤم والتمرد في نفسه . ان الله الذى نشد الشاعر عنده الجواب ظل ذلك الاله المجهول الذى يهب العزاء والراحة النفسية للمسالمين من عبيده . اما الشاعر الذى احسّ ذاته والوجود من حوله ،فلم يجد عند ذلك الاله جوابا ،فظل نفسا هائمة قلقة ابدا تتشوق الى الحقيقة .

---

(١) ميخائيل نعيمه ،ع .س. ،٥٠

(٢) رشيد ايوب ،اغاني الدرويش ،١٧٧.

الخاتمـــــــــــة

لقد اتضح لنا ان الشعر المهجرى اصطبغ بصبغة رومنتيكية ظهرت مبزاتها في اسلوبه وروحه . ولكن الى اىّ حدّ استطاع ذلك الشعر ان يحتوى تلك العناصر الرومنتيكية وان يرتفع بها الى مستوى الرومنتيكية الغربية ؟ ليس من الضرورى ان يقلّد الشاعر المهجرى شعراء الغرب في صبغ شعره بتلك الخصائص حتى يصبح في مصاف هؤلاء . فالرومنتيكية روح قبل ان تكون مذهبا ، بل هي ثورة على التقليد والتقيّد ونزوع الى الفردية الذاتية في كل شيء . لقد تحدث المهجريون عن الطبيعة فكان حديثهم ذاتيا ، فهو حديث النفوس الهائمة التي نشدت الانس والجمال والحب ، وتاقت الى معرفة حقيقة الوجود من حولها . وهكذا نرى ان الشاعر المهجرى مثّل بصدق طبيعة الرومنتيكي في جزئياتها ، ولكنه قلما كوّن لنفسه فلسفة خاصة عن الطبيعة كما نرى لدى بعض رومنتيكيي الغرب امثال وردزسورث الذى اعتقد "ان الهه هو روح الطبيعة" (١) وكذلك شلنج الذى صرّح بان "العقل طبيعة غير منظورة ، بينما الطبيعة عقل منظور" (٢) ومع ذلك فقد وجد لدى المهجريين فلسفة عامة تجاه الطبيعة الا وهي فلسفة "الغاب" حيث رمزوا به الى الطبيعة المثالية التي تمثّل وحدة الوجود . اما بالنسبة الى شعر العاطفة فنرى ان رومنتيكيي الغرب كانوا اكثر انصهارا واعمق وجدا واشد انسحاقا في الحب من المهجريين . ولعل ذلك يعود الى الحياة العملية الشاقة التي عاناها المهجرى في دار هجرته ، بحيث صرفه العمل عن عواطفه الخاصة . ولا ننسى ان الحنين الى الوطن استنزف قسطا كبيرا من تلك العاطفة التي توزعت بين المحبوب والوطن والانسانية جمعاء . ومع ذلك فقد مثّل الحب "المهجرى" ذلك الاتجاه الروحي الذى ترفع عن الغزل المادى ، كما نجد في شعر العاطفة لدى

---

1 Oscar James Campbell, Poetry and Criticism of the Romantic Movement, (New York: Appleton-Century-Crofts, Inc., 1952), p. 88.

2 Ralph Tymnus, op. cit., p. 179.

رومنتيكيي الغرب . ربط شعراء المهجر عالم الواقع بعالم آخر هو عالم الاحلام والرؤى والاخيلة . وعالمهم هذا هو عالم الرومنتيكي الذى يرى فيه وسيلة لتحقيق ما عجز عن تحقيقه بالواقع . وخلاصة القول ان تلك الاخيلة والرؤى هي وسيلة لتجسيد احاسيس الشاعر وامانيه في عالم واقعه اليقين النفسي . وهذا هو مفهوم رومنتيكيي الغرب عامة ، الا انهم كانوا اكثر اغراقا في الخيال ، كما تجاوز بعضهم العلاقة النفسية التي تربطه بالخيال ، فرفعه الى صعيد ذهني كما فعل كيتس الذى اعتبر الخيال الخلاق ارقى وسائل الكشف والمعرفة "(١) وكذلك نرى ان حديث المهجريين عن الاحلام كان لا يتعدى الذكر ، دون ان يعمد هؤلاء الى تفصيل احلامهم واظهار علاقتها الوثيقة التي تربط عالم اليقظة بعالم النوم ، او عالم الشعور بعالم الاشعور ومكامن النفس كما اعتقد هردر وكذلك شوبرت .(٢) فقد كانت الاحلام موضوعا هاما بالنسبة لرومنتيكيي الغرب للكشف عن ذواتهم "وموضوعا خصبا لفلسفتهم ."(٣) واذا ما انتقلنا الى ذكر الموت نجد ان الشاعر المهجرى لا يختلف عن غيره من شعراء الرومنتيكية الغربيين حيث رأى في الموت طريقا للخلاص من الواقع الذى بدا متناقضا قلقا غامضا اشد الغموض . فالموت هو القضاء على ذلك الاحساس المرير الذى ظل ينتاب الرومنتيكيين جملة ، ومن جهة اخرى هو وسيلة للاجتماع بطيف مفارق عبر عالم الموت . ومع ذلك فنحن قلما نعثر على صور مفزعة للموت في الشعر المهجرى كما في شعر هؤلاء . وان كثر ذكر القبور ووصف الاحتضار . اما القلق والتمرد فهو في الشعر المهجرى يدور حيرة الانسان امام نفسه ومصيره والعالم من حوله . وهو محاولة الفرد لتخطي حدود المعرفة المتيسرة والنزوع الى الجوهر الحقيقي وقبض الاشياء في روحها . ولذلك نقول ان الشاعر المهجرى لا يقل في

---

(١) احسان عباس ، فن الشعر (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٥٩م .) ، ١٤٨

(٢) محمد غنيمي هلال ، ع . س . ، ٦١ .

(٣) م . ن . ، ٦٨

تمرده ونزوعه الغيبي عن الشاعر الرومنتيكي الغربي .

اما مقدار تمثل الشعر المهجرى للمدرسة الرومنتيكية عامة ، فهو مقدار محدود ساير الرومنتيكية الغربية في بعض نواحيها ولم يسايرها في البعض الاخر . ونحن لا نعد هذا مأخذا على الشاعر المهجرى ، بناء على ما اشير سابقا من ان الرومنتيكية هي نزعة فردية ذاتية لا منهجية وان بدت ضمن اطار عام . فالشاعر المهجرى احسّ وعبّر عن احاسيسه ولا حاجة له بالتقيد بنزعات رومنتيكية ليست لها منبعا في ذاته . فمثلا نرى ان الشاعر الرومنتيكي الغربي عامة مال الى استلهام الشرق والعصور الوسطى مدفوعا بما مل الحنين الى المجهول ، والرغبة في الفرار من الواقع . فقد بهر الغربي بطبيعة الشرق وجماله ولياليه الغريبة الساذجة التي اقترنت ببدائية الصحراء ، فكانت مثالا ينزع اليه . كذلك عبر بخياله الى الماضي هربا من واقعه واستلهاما للاسطورة التي تلاقي هوى في نفسه . اما المهجرى فهو شرقي مشبع بالروحانية الشرقية فلا حاجة له بالبحث عن الشرق لاستلهام شيء تركته الاجيال في ذخيرة نفسه . ولا يغرب عن البال ان المزاج الذى صوره الشعر المهجرى هو مزاج معتدل غير متطرف بالنسبة لواقعة وارتباطه بهذا الواقع . ولذلك لم يكن مزاجا مريضا كأمزجة بعض شعراء الغرب الذين غالوا في سلبيتهم امثال بايرون .

والان وقد اتضح لنا ان الرومنتيكية انبثقت فعلا في الشعر المهجرى ، وان الفكر الغربي امتزج بالادب العربي بقوة عظيمة اتت أكلها في ذلك الشعر ، لا بد لنا ان نسأل : هل افاد ذلك التزاوج الادب العربي فيما بعد ؟ والى اى حدّ نستطيع ان نجعل هذه الانطلاقة حلقة لازمة لتطور الشعر العربي ؟ كانت الرومنتيكية وثبة خلاقة قفز بها الادب من مرحلة التقليد الى مرحلة الخلق والابداع . لقد افادت الشعر العربي اذ ربطته بالنفس وكفت عقل الشاعر عن تكبيل التجربة الفنية واخضاعها للمنطق والسطحية الذهنية . لقد تحول الشاعر عن التهالك على المظاهر التقليدية والمعاني الذهنية المتوارثة في الشعر ، الى الانصباب على الذات واستجلاء الاحاسيس الصادقة التي تضطرم بها نفسه . لم يعد الشعر الفاظا معجمية متداولة المعاني رتيبة النغم ، بل اصبح ظلالا نفسية تصل الشعر بالانسانية جمعاء عن طريق المشاعر المشتركة .

من هذا يتضح لنا ان هذه الذاتية الجديدة في الشعر كانت بدء الانطلاق نحو التجديد في المبنى والمعنى ، كما انها جعلت منه روحا رقيقة شفّة وثيقة الاتصال بالنوازع الوجدانية

التي يثيرها احساس الشاعر بذاته وبمشكلته الوجودية . ولا شك في ان الشعر العربيّ الحديث هو وليد تلك الانطلاقة التي خلقها الشعر المهجري في الادب العربي وفي هذا القول ما يجعلنا نؤكد بان هذه المرحلة كانت ضرورة قصوى لبعث الشعر العربي من رقدته الجاهلية الطويلة .

مثل هذا الحكم يسوقنا الى نقطة اخيرة في البحث الا وهي مقدار ارتكاز المذاهب الادبية الحديثة في الشعر العربي على المدرسة الرومنتيكية التي وجدت في الشعر المهجري . هل هناك علاقة بين المدرسة الرومنتيكية وبعض المدارس الشعرية عندنا ، او التي اخذت بالظهور كالرمزية والسريالية وغيرهما . هناك نقطة اساسية لا بد من ذكرها هنا وهي ان جميع هذه المدارس الحديثة هي في اساسها التفافة الى الذات الانسانية المجردة في لاوعيها ولاشعورها . كما انها تتناول علاقة تلك الذات بالمجتمع والواقع والوجود . وقد اختلفت وجهات النظر بالنسبة لهذه العلاقة ، باختلاف النزعات والاهداف والمفاهيم ، ولكنها جميعا اتفقت في تلك النزعة النفسية الفردية التي طغى عليها الاحساس الوجودي فحاولت ان تثور وان تتمرد وان تستعيد حقيقتها قبل ان يطمر الواقع معالمها . ومن هنا كانت نقطة ارتكاز هذه المذاهب على الرومنتيكية التي دعت الى ولوج خبايا النفس والافصاح عن ذاتها كما ثارت على المجتمع والواقع . "فالرمزية رفعت من درجة الذاتية التي نص عليها الرومانطيقيون"(١) والشعر بالنسبة لها موسيقى داخلية يلفها الغموض النفسي واختلاط الشعور والحواس. لذلك ثارت على الميوعة والوضوح في الرومنتيكية التي تنقل التجربة الشعورية خارج النفس. اما السريالية فهي ايضا تحطيم الشعور والواقع والرجوع الى البدائية التي دعا اليها الرومنتيكيون ، كما انها "مغالاة في الاتجاه الانطوائي وقطع الصلة بالعالم الخارجي ."(٢) بينما ارادت الوجودية تحطيم الواقع بعد ان اعياها البحث عن حقيقة الوجود ومعنى حرية الانسان ، فثارت "على كل ارتباط بالواقع الخارجي ."(٣) ولا شك في ان قلق

---

(١) احسان عباس ، ع . س . ، ٧٢ .

(٢) مصطفى سويف ، الاسس النفسية للابداع الفني (الطبعة الثانية بالقاهرة : دار المعارف بمصر ، ١٩٥١ م .) ، ٩ .

(٣) م . ن . ، ١٢ .

الرومنتيكية انقلب عبثا وجوديا على ايدى الوجوديين . اما البرناسية فقد كان التفاتها الى الخارج اكثر منه الى الداخل حيث ثارت على السهولة في التعبير وعدم الصقل واهمال الاختيار والتنقيح . بينما ثارت الرمزية على وضوح التجربة النفسية وطغيان العقل عليها ثارت البرناسية على وضوح التعبير وسهولته وعدم احكام التجربة الفنية . فالبرناسية هي احياء للكلاسيكية خاصة من حيث الشكل .

وهكذا نرى ان هذه المدارس في جملتها ذات علاقة قوية بالرومنتيكية قد تكون ايجابية او سلبية او الاثنتين معا . ولا يغرب عن البال ان تقدم العلوم وخاصة السيكولوجية ، ساعد على مد هذه المدارس بالحقائق المختلفة عن طبيعة النفس وعالم اللاشعور الذى بدا اعمق غورا من الحياة الواعية ، واقوى تأثيرا واشد اتصالا بحقيقة الفرد التي اخذ بها الرومنتيكيون .

المصادر العربيـــــــــة

(١) ابو شبكة ، الياس . روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجـــة .
(طبعة ثانية) . بيروت : دار المكشوف ، (١٩٤٥م .) .

(٢) بلاطة ، عيسى يوسف . الرومنطيقية . (الطبعة الاولى) . بيروت :
دار ريحاني ، (١٩٥٥م .) .

(٣) تيغم ، فـان . الرومنطيقية . تر . بهيج هثمان . بيروت :
دار بيروت ، ١٩٥٦م .

(٤) جبر ، جميل . جبران . بيروت : دار ريحاني ، ١٩٥٨ م .

(٥) حسن ، محمد عبد الغني . الشعر العربي في المهجر . (طبعة اولى .) .
القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥م .

(٦) خوري ، الفرد . الكلمة العربية في المهجر . بيروت : دار
ريحاني للطباعة والنشر ، لا . ت .

(٧) ديب ، وديع . الشعر العربي في المهجر الامريكي . بيروت :
دار ريحاني ، ١٩٥٥ م .

(٨) الريحاني ، امين . الريحانيات . طبعة حديثة منقحة . بيروت :
دار ريحاني للطباعة والنشر ، (١٩١٠م .) . ٢ج .

(٩) سراج ، نادرة جميل . شعراء الرابطة القلمية . مصر : دار المعارف
١٩٥٧ م .

(١٠) سويف ، مصطفى . الاسس النفسية للابداع الفني . الطبعة الثانية .
(القاهرة) : دار المعارف بمصر ، (١٩٥١م .) .

(١١) عباس ، احسان ومحمد نجم . الشعر العربي في المهجر . بيروت : دار
صادر ، ١٩٥٧م .

(١٢) عباس، احسان . فن الشعر . (الطبعة الثانية) . بيروت : دار بيروت ، (١٩٥٥م .) .

(١٣) المقدسي ، انيس الخوري . الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث. طبعة ثانية ، (بيروت) : لا . مط . ، (١٩٥٢م .) ،

(١٤) مندور ، محمد . الادب ومذاهبه. الطبعة الثانية . القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ١٩٥٧م.

(١٥) مندور ، انيس . "نوفالس شاعر الليل والنوم والموت" ، الرسالة الجديدة ، ١٦ (يوليو ، ١٩٥٥ م .) ، ٥٥.

(١٦) نعيمه ، ميخائيل . جبران خليل جبران . طبعة ثانية . مطبعة دار صادر ، (١٩٣٤م .) .

(١٧) نعيمه ، ميخائيل . سبعون . بيروت : دار صادر ، ١٩٥٩م. ج : ١ ، ٢.

(١٨) نعيمه ، ميخائيل . الغربال . (طبعة اولى) . مصر : دار المعارف ، (١٩٢٣ م .) .

(١٩) هلال ، محمد غنيمي . الرومانتيكية . (القاهرة) : مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، لا . ت.

المصـــادر الاجنبيـــــــة :

1. Anderson, George K. Tradition and Revolt, the World in Literature 3. New York; Scott, Forsman And Co., (1951).

2. Babbitt, Irving, Rousseau and Romanticism. New York: Meridian Books, (1919).

3. Barzun, Jaques. Romanticism and The Modern Ego. Boston: Little, Brown and Co., (1943).

4. Bernboum, Ernest. Anthology of Romanticism. Third Edition, New York: the Ronald Press Co., (1929).

5. Campbell, Oscar James. Poetry and Criticism of the Romantic Movement. New York: Appleton - Century - Crofts, Inc., (1932).

6. Page, Curtis Hidden. 'Romantic Emancipation', Lectures on Literature. New York: The Columbia University Press, 1911, pp. 208-212.

7. Praz, Mario. The Romantic Agony. Second Edition; London: Oxford University Press, (1933).

8. Tymnus, Ralph. German Romantic Literature, London: Methuen and Co. Ltd., 1955.

الدواويـن المعتمـــــــدة

= ; =

(١) ابو ماضي ، ايليا . تبر وتراب . (الطبعة الاول) . بيروت : دار العلم للملايين ، (١٩٦٠م) .

(٢) ابو ماضي ، ايليا . الجداول . نيويورك : مطبعة مرآة الغرب ، ١٩٢٧ م .

(٣) ابو ماضي ايليا . الخمائـل . (طبعة ثانية) . بيروت : مكتبة صادر ، لا . ت .

(٤) ايوب ، رشيد . اغاني الدرويش . بيروت : دار صادر ، (١٩٢٨م .)

(٥) ايوب ، رشيد . الايوبيات . نيويورك : لا . مط . ، ١٩١٦م .

(٦) ايوب ، رشيد . هبي الدنيا . بيروت : دار صادر ، (١٩٤٠م .) .

(٧) جبران ، خليل جبران . المواكـب . مصر : مطبعة المقطم ، ١٩٢٣م .

(٨) الريحاني ، امين . هتاف الاودية . (الطبعة الاولى) . بيروت : دار ريحاني ، (١٩٥٥م .) .

(٩) عريضه ، نسيب . مناهل الادب العربي . بيروت : مكتبة صادر ، (١٩٥٠م .) . ج ؛ ٣٠ .

(١٠) نعيمه ، ميخائيل . همس الجفون . بيروت : مكتبة صادر ، (١٩٤٣م .) .